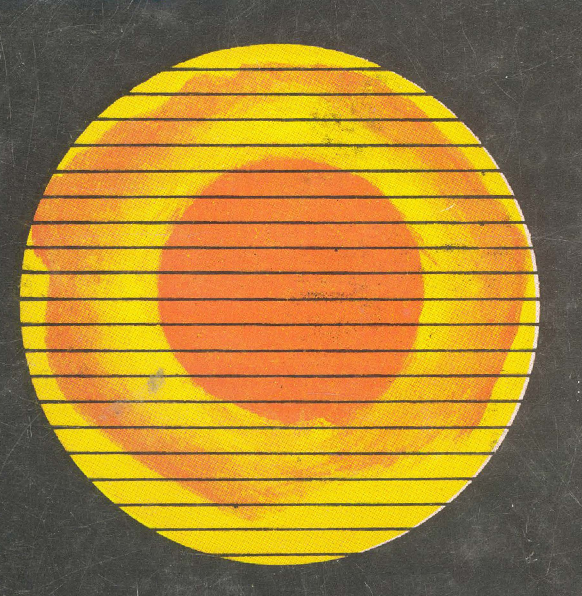
أنيس منصور

وجع في قلب إسرائيل





هذا الكتاب

ظل اليهود طوال تاريخهم يضربون على أنفسهم ستاراً من الانطواء داخل حارات لا يسكنها غيرهم . . دون أن يتعايشوا مع المجتمعات التى يعيشون فيها ودون أن يسمحوا لها أن تتعايش معهم .

لم تكن صلتهم بتلك المجتمعات إلا تلك الصلة التى تجمع بين المحتال وضحيته أو الثعبان وفريسته . . لكل هذا وغيره ظهر العداء وانتشر الإرهاب لليهود فى كل مكان وتحولت حياتهم فى حارات أوربا كمجتمعات منبوذة من أسلوب اختاروه للحياة إلى نقمة تطاردهم وتودى بهم إلى المهالك .

وهرباً من الحصار والإرهاب جاءوا أو جىء بهم إلى الشرق . . إلى القلب الدامى للعالم العربى . . ولأن عقدتهم الكبرى أنهم عاشوا فى الحوارى المغلقة عليهم فقد أحسوا بعد اغتصابهم أرض فلسطين أن دولتهم التى أسموها « إسرائيل » عبارة عن حارة ضخمة فى الأرض العربية يحيط بها العرب من كل جانب يسدون فى وجوههم الطريق إلى البر والبحر والأسواق .

« وإسرائيل — دولتهم — ليست لها خريطة رسمية لأن حدودها لم تحدد بعد لأنهم لا يريدونها محدودة » . .

لأن أطماعهم لا تقف عند حد.. ولأنهم يريدون أن يحتالوا وأن يساوم يسرقوا . .

« وليس صحيحاً أنهم يريدون سلاماً أو تعايشاً . . لأنهم لم يعرفوا السلا ولم يعايشوا أحداً فى أى عصر من العصور » .

وفى هذا الكتاب يكشف لنا أنيس منصور عن كل ذلك وعن حيل و الشعب اليهودى منذ سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٩٠٠ بعد الميلاد الذى ا غفلة العرب وتخلفهم وشقاقهم فأقام فى قلب بلادهم دولة إسرائيل ! !

١٠٠ قرش

احمد حجي

مطابع المكتب المصرى الحديث

وجع فى قلب إسرائيل

الناشر المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

أنيس منصور

وجع فى قلب اسرائيل

المكتب المصرى الحديث

الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٧٩

الصهيونية عنصرية.. أو لعبة السهام المرتدة إلى الرئيسات اليهودية في العالم!

اليهود هم الذين قالوا عن أنفسهم : نحن مثل حبات الرمال كلما داستنا الأقدام كلما أزددنا نعومة ولمعاناً . .

وهم الذين قالوا عن أنفسهم أيضاً : نحن مثل حبات العنب تعصرنا الأقدام فيكون منا النبيذ بعد ذلك . .

ولكن من الذى جعل الرمل سماً أبيض لكل الأقدام التى تدوسه أو الشفاه التى تقبله ؟ ! ومن الذى جعل النبيذ قاتلاً لكل الأفواه التى تدنو منه وتشربه ؟ !

أنهم اليهود أيضاً . .

والذى قال أن هناك غريزة للحياة ، وغريزة أخرى للموت : رجل يهودى اسمه فرويد عاش فى فيينا عاصمة النمسا ، التى انعقد فيها المؤتمر الدولى لكتاب وشعراء العالم .

وهذا الرجل فرويد قد مد أصابعه إلى أعماق النفس البشرية فأخرج من ظلماتها وحوشاً ضارية ومخاوف رهيبة . . وفزعاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً . . إنه رجل قد انحدر من أكثر مخلوقات العالم خوفاً وفزعاً وقلقاً . فلا يوجد شعب فى الدنيا جرب أنواع العذاب ، ومجنون بتطبيقها على الآخرين مثل هؤلاء اليهود .

والذى نراه فى مؤتمر الأدباء فى فيينا يذكرنا بذلك.. فهذا المؤتمر قد انعقد لدراسة « الأدب الإسلامى »، أو الأدب فى ظل السلام منذ سنة ١٩٤٥ منذ انتهت الحرب العالمية الثانية وأكلت عشرين مليوناً من الناس. ويقول اليهود أن ربع هذ العدد كان من اليهود وحدهم وهو رقم غير صحيح.. فقد أحرق هتلر اليهود وغيرهم من خصومه من المسيحيين فى أفران فى داخا وبوخنفالد وبلزن وأوشفتس..

صحيح أن السلام لم يتحقق فى العالم كله حتى الآن.. فما تزال النار لها دخان فى فيتنام وفى الهند وباكستان وبنجالاديش والبرتغال وشيلى وغداً فى الأرجنتين وفى أنجولا وفى قبرص وفى الحبشة وفى جزيرة مندناو فى الفلبين وفى كوريا شمالاً وجنوباً.. ثم فى الشرق الأوسط.. ففى لبنان دخان ونار والشعب يأكل بعضه البعض باسم الدين والطبقية والتدخل السورى والروسى والأمريكى ـ والشاعر العربى القديم يقول عن الوضع فى لبنان: والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله.. ثم إسرائيل هذه القنبلة الأمريكية العالمية المغروسة فى قلب الأمة العربية منذ ربع قرن وزيادة. وقد أدى الوجود الإسرائيلى فى العالم العربى إلى خراب بيوت العرب ـ مصر مثلاً ولا داعى إلى أن أقول ما هو معروف عند كل العرب ويكفى أن أقول أن مصر كانت دولة لها مستقبل أصبحت دولة لها ماض. وبعد أن كانت مصر هى مستقبل الشعوب العربية، أصبحت الشعوب العربية برواجها وثرائها وسلامها هى أمل مصر..

فأين هو السلام فى العالم كله ؟ أننا نعيش فى ظل الحرب وفى حالة حرب وفى خوف من الحرب ولذلك نشترى المدافع بدلاً من الرغيف، ونشترى الدبابة بدلاً من الأوتوبيس، ونبنى الملاجىء للجنود بدلاً من المدارس والمستشفيات..

ثم إننا لم نضع آخر نقطة فى آخر سطر فى اتفاقية السلام فى الشرق الأوسط..

لقد انتقلت مصر من الكيلو ١٠١ غرب القناة إلى الكيلو ٣٥ شرق القناة.. ولا تزال أرضنا محتلة.. ولا تزال قواتنا تحت السلاح.. ولا تزال مدافعنا محشوة بالنار.. وأقلامنا متخمة بالبارود وحناجرنا صارخة. وقلوبنا واجفة.. ولا يزال السلام أعز أمانينا وقد دفعنا فيه الكثير من أرواحنا وأقواتنا..

فأين هو السلام ؟

أما الشعوب الأوروبية فقد أرهقتها الحروب . . وعذبتها المحاكمات ، وأقلق اليهود ضمائر الجميع ففى كل يوم عشرات الأفلام عن تعذيب اليهود . . ومئات الكتب عن إحراقهم . . وألوف القضايا تطلب تعويضهم عن خسائرهم . . وعشرات الصيادين اليهود يطاردون النازيين القدامى الواحد وراء الآخر . . آخر هؤلاء إيخمان الذى استدرجوه إلى إسرائيل وأعدموه . . ولما فزع العالم لذلك . . راحوا يوقعون أعداءهم فى صمت . . ثم هذه « المحاكمة الخاصة » أو « محاكم التفتيش اليهودية » التى نصبوها فى كل مكان للبحث عن رائحة النازية فى تاريخ كل الأبرياء . . أنهم اليهود الذين يؤلبون الناس ، ويقلبون المواجع . . ويهزون الأمن الدولى . والسلام القومى وهم الذين يمسكون الحديد والنار . .

ولا يملك العالم كله إلا أن يلعن اليهود . . ويلعن اليوم الذى أسكنهم أرضه وأبقاهم بين أفراده . . ولكن اليهود لا يتعبون من تعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم من الناس . . وليس من الصدف أن يكون من بينهم اناس من مثل فرويد العالم النفسى الكبير وخبير الخوف والفزع والعقد والموت . . وأن يكون من بينهم كافكا الذى لم يعرف من كل ألوان الطيف إلا اللون الأسود وراح يصبه على كل ورقة وكل أرض وفى الأدب الأوروبى كله .

وكأن اليهود ، بمطابعهم وصحفهم وشركاتهم السينمائية ، قد أعادوا للإنسانية كل أنواع العذاب . . ردوا إليها الضربة ألف مرة . . ثم راحوا يبيعون للناس الراحة بالفلوس ، ويقدمون لهم الجنس مقابل الشرف والقيم الأخلاقية والدينية . . ثم يثورون على ذلك بالمذاهب الفوضوية والشيوعية والتخريبية والإنحرافية . . وبذلك يهدمون المجتمع الذى تمنوا أن يعيشوا فيه . . ويطعنون الأيدى التى امتدت لهم ، والقلوب التى أخفقت إشفاقاً عليهم .

فمنذ أيام صدرت مجموعة قصصية رائعة مروعة لكاتب يهودى اسمه (إسحاق باشفيس سنجر) المجموعة اسمها (أنواع من العذاب) . وهى خريطة روحية للشعب اليهودى فى العصر الحديث من بين هذه القصص واحدة اسمها : هانكا . . انها حكاية يهودى يسافر إلى الأرجنتين لالقاء محاضرات فى جمعيات أدبية ودينية وتلتقى به فتاة اسمها هانكا تقول له إنها إحدى قريباته . وهذه الفتاة تحكى له قصص العذاب والمرارة التى يعيشها أى يهودى بعيداً عن بلاده تقول له إنها ميتة أو تكاد تكون كذلك وإنها قد ألفت كل أنواع الحرمان

والعدم والإنطواء والعزلة وهو يحاول أن يعرف عنها شيئاً ولكنها لا تقول . وكأنها تريد أن تقول : أنا لست واحدة بالذات ، وإنما أنا كل واحدة فى هذه البلاد أو فى أية بلاد أخرى . . ويجيء رجل يهودى يقول له : إن هذه الفتاة غريبة الشكل وربما لم تكن بشراً . . ربما هى روح ويطلب إليه أن يتخلص منها .

ولا أعتقد أننى صادفت عدداً من المخاوف والكوارث فى أى عمل أدبى كالذى جاء فى هذه القصة وهى تتوالى بصورة منطقية فى كل صفحاتها الشائكة الدامية الدامعة . . ويطلب إليه يهودى آخر ألا يلقى محاضرة عن الأرواح أو العالم الآخر أو حتى عن الله . . لأن الناس الذين سوف يلتقى بهم كلهم يساريون شيوعيون . . وتفادى هذا الأستاذ الكلام عن الغيبيات وفوجىء بأن الحاضرين يسألونه عن تحضير الأرواح والرؤية عن بعد والسماع عن بعد . . ثم يسألونه إذا كان هناك أرواح . . فلماذا لا تنتقم أرواح الشهداء اليهود من أرواح النازيين ، وإذا كانت الأرواح تتلاقى عن بعد ، فكيف يختلف اليهود فى كل العالم ؟ وإذا كان الله موجوداً فلم هو سعيد بتعذيب اليهود فى كل التاريخ . . واندهش المحاضر بأنه وجد الفتاة هانكا بين الحاضرين وكانت قد اختفت عنه أياماً عديدة . . وجدها بملابسها السوداء . . وعندما حاول أن يراها بوضوح كانت قد اختفت تماماً .

إنها إذاً مناجم العذاب والرعب التى يخفيها اليهود تحت جلودهم . . إنها ينابيع الاضطهاد والاحتقار والغيظ والكراهية التى تنفجر إلى غير نهاية فى أحاديثهم وقصصهم وأعمالهم الفنية والتى يصدرونها إلى كل شعوب العالم حتى يضيق بهم العالم وهنا تتجدد كل أشكال الاضطهاد والطرد والنفى . . والسبب اليهود أنفسهم !

ولم نكد نجلس فى مقاعدنا فى القاعة الكبرى الضخمة فى فندق هيلتون فيينا حتى تطايرت أوراق على مقاعدنا . أنها منشور وزعه الوفد الإسرائيلى على كل الأعضاء (٣٠٠ عضو من ٥٠ دولة من بينها مصر) . .

يقول المنشور :

« مضت ثلاثون عاماً على الحرب العالمية الثانية ، ثلاثون عاماً على قتل النظام النازى للملايين من يهود أوروبا ، ذلك النظام الذى آمن بالعداء للسامية وإبادة الشعوب . . »

« إن القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أدان الصهيونية كحركة

عنصرية تماماً كالفاشية والنازية . وقد صدر هذا القرار بمبادرة وتصويت من الدول العربية ودول العالم الثالث وكتلة الدول الشيوعية . إن مثل هذا القرار الذى ليس له مثيل ضد مذهب تاريخى . . إنحراف شائن ضد حقائق التاريخ والإنسانية والأخلاق فى هذا العصر . إنه امتهان لذكرى كل ضحايا التميز العنصرى فى كل العصور ، وخاصة اليهود . . فما هى الصهيونية ؟ إنها حنين اليهود للعودة إلى أرضهم التاريخية التى طردهم منها الرومان الغزاة . فتأثروا وهذا الحنين إلى أرضهم ، قد شغلهم ألفى سنة دون انقطاع ، فى صلواتهم وفى عاداتهم وتقاليدهم وأدبهم وآمالهم فى الخلاص . وحجهم إلى الأماكن المقدسة » .

كما أن الصهيونية منذ القرن التاسع حتى الآن . ليست إلا منظمة سياسية تعبر عن هذا الأمل . .

ويقول المنشور بمنتهى الوقاحة : فالصهيونية هى حركة التحرير القومية الوحيدة التى اتجهت إلى تحقيق الأمل منها . دون استخدام القوة أو الحرب وإنما عن طريق العمل وإنشاء المستعمرات الزراعية وتخصيب الأراضى البور ، والصهيونية هى حركة الاستيطان الوحيدة التى لم تعمل على طرد السكان الأصليين من أرضهم وإنما إختارت أن تعيش معهم وأن تعاونهم لا أن تستغلهم ، لا أن تحاربهم وإنما أن تتعايش معهم فى سلام . .

ومن المغالطات أيضاً أن يقول المنشور الإسرائيلى : الصهيونية لم تدع إلى كراهية العرب - لا فى الدعاية ولا فى الأدب ولا فى الصحف ولا فى فى المدارس .

ويقول المنشور فى نهايته : إن إدانة الحركة الصهيونية كحركة عنصرية ليست إلا محاولة للقضاء على الدولة اليهودية وذلك بطردها من حظيرة القانون الدولى .

واليهود يضحكون على الأوروبيون الذين حضروا من أقصى الشرق والغرب والجنوب والشمال ولا يعرفون الكثير عن الذى فعلته إسرائيل فى فلسطين وفى العرب . عندما سرقت أراضيهم وطردتهم وأودعتهم السجون والمعتقلات وقتلت منهم الألوف . وباعدت بين الرضيع وأمه والعجوز وزوجها لمجرد أن هناك (شبهة) اتصال بالعرب الأقارب أوالأشقاء خارج إسرائيل . .

وإن كانت إسرائيل توافق على أن يتلق العرب فى داخلها ملايين الجنيهات من

عائلاتهم فى كل أنحاء العالم . وهو مكسب هائل لا ينتهى !

ثم أن الصهيونية نداء يهودى عالمى بأن يكون لليهود وطن . ولم يحلم زعيم الصهيونية هرتسل بأن يكون هذا الوطن فى فلسطين . وإنما فى أى مكان . .

ولكن اليهود اهتدوا إلى أكاذيب أخرى فى التوراة أو التلمود تقول أن الرب اختار لهم فلسطين بالذات . وهى أكذوبة . وهناك أكذوبة أخرى هى أن الله قد اختارهم دون بقية الشعوب .

وقد صدر فى أوروبا كتاب رائع للباحث الجاد (اليجرو) يناقش كل الخرافات التى فرضها اليهود وصدقوها وفرضوها بالحيل والنار على الشعوب الأخرى . . وخصوصاً الشعب العربى فى فلسطين .

وهذه الصهيونية عنصرية : لأنها دين خاص باليهود وحدهم . فاليهود دين عائلى دين وراثى . . وليس فى الديانة اليهودية تبشير ككل الديانات الأخرى . بل أن اليهود يشترطون صفات قاسية لكل من يحق له أن يسمى نفسه يهودياً أو يحصل على الجنسية الإسرائيلية . . فاليهودى يجب أن تكون أمه وجدته يهوديتين . . فإذا كانت أمه ملحدة أو مسلمة لم يعد يهودياً . . وإذا كانت أمه لم تتزوج وكانت جدته يهودية فليس يهودياً . . ولا يوجد فى إسرائيل حتى الآن تعريف نهائى لمن يكون اليهودى ؟

وهذه المناقشات لها هدف واحد أن يكون اليهودى ، والمواطن الإسرائيلى بعد ذلك ، يهودياً بالدم والدين . . ولكن الذى به بعض الدم اليهودى ، ليس يهودياً . .

ولكن لما هاجر إلى إسرائيل عدد من اليهود من جميع بلاد العالم : أطباء ومهندسون ورجال الدين تعطلت الحياة تماماً فقد كانت المشكلة أنهم لا يجدون الأيدى العاملة ولذلك كان لابد من (إستيراد) يهود ملونين ليقوموا بالأعمال الحقيرة فى إسرائيل . . وكانت أولى العمليات هى عملية (البساط السحرى) . . والتى نقلوا فيها اليهود من اليمن . وذهب ألوف اليمنيين ليقوموا بكنس الشوارع وزراعة الأرض . ثم نقلوا اليهود الزنوج لنفس السبب . وأحس اليهود البيض بأن هناك خطراً على الدولة الجديدة ، بأن يكون سكانها من الملونين . . بينما كانت الحركة الصهيونية تحرص على أن تكون إسرائيل دولة بيضاء ، أى قطعة من أوروبا فى آسيا ثم أن اليهود الملونين كثيرو النسل . وأحس البيض

أنه لن يمضى وقت طويل حتى تكون الأغلبية اليهودية من الملونين . . ثم أن الكثير من الشبان بدأوا يهاجرون من إسرائيل بعد حرب ٦٧ وبعد حرب ٧٣ . . وهذا يؤدى إلى نقص فى عدد البيض وزيادة مستمرة فى السود والسمر والصفر واليهود البيض الغربيين الذين هم أقل درجة وقدراً وسلطة من اليهود الشرقيين : أى الروس والپولنديين . .

ومعنى ذلك أن الصهيونية التى هى دين وسياسة يهودية . هى عنصرية أيضاً أى خاصة باليهود الشرقيين دون الغربيين ودون الملونين . . وطبعاً فوق العرب فى إسرائيل .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تجد إسرائيل فيها نفسها منبوذة أو مطرودة فقبل ذلك طردتها منظمة اليونسكو . لأن إسرائيل قد هدمت المقدسات . . هدمت المسجد الأقصى وهدمت جدران مسجد عمر . وقامت بالحفائر تحت قبر إبراهيم الخليل . . ثم أنها نهبت كل اللوحات والنقوش والمخطوطات فى دير سانت كاترين . . ثم أن اليهود أنفسهم قد اتهموا بطلهم موسى ديان بأنه لص آثار وتحف .

ولم تكد الأمم المتحدة تصدر قرارها حتى هاجت الصحف والإذاعة والتليفزيون التى يسيطر عليها اليهود وطالبوا بهدم الأمم المتحدة . . قال أبا إيبان : إن الأمم المتحدة قامت لحماية العالم ضد النازية ، وبعد ٣٠ عاماً قامت لحماية العداء للسامية وهدم إسرائيل !

وقالت جولدا مائير : أن الأمم المتحدة يجب أن يتبرأ منها أعضاؤها . لقد لوثت سمعة الجميع . ولكن إسرائيل سوف تبق عضواً فيها أو عضواً فى هيئة أخرى أكثر احتراماً لنفسها وغيرها .

وقال أنور السادات فى نادى الصحفيين فى واشنطن : لقد عرفنا الكراهية والحقد والمرارة والحرب والضياع والتشرد عندما عرف الشرق الأوسط هذه الصهيونية . .

وسارت المظاهرات اليهودية ضد أنور السادات فى كل المدن الأمريكية التى زارها . . وكانت هذه المظاهرات تحية لشجاعة السادات الذى لم يمنعه هذا الحشد الهائل من الصحفيين اليهود وأصحاب رؤوس الأموال وكل الصحف وأجهزة الإعلام وأعضاء الكونجرس اليهود أو العاطفين على اليهود ، من أن يقول ما يراه وفى قلب نيويورك التى تحكم أمريكا التى تحكم العالم أيضاً .

وقبل أن نصل إلى مدينة فيينا الجميلة الهادئة الوقور، سبقتنا نفس القضية ولكن بصور مختلفة فالمستشار برونو كرايسكى . يهودى ولكنه فى نفس الوقت قرر أن يكون نمساوياً . . فاليهودية دين . . ومن الممكن أن يكون يهودياً فى أى بلد .، وليس فى إسرائيل وحدها . ومن المؤكد أنه يشعر بالعطف على إسرائيل ولكنه يجب أن يظل وطنياً محباً مخلصاً للبلد الذى اختاره وعاش فيه . . وقد اختلف كرايسكى مع إسرائيل . وكان له موقف معروف من اللاجئين اليهود القادمين من روسيا . وقال إن اليهود لهم على حكومة النمسا حق الإيواء . هذا طبيعى . ولكن لا بقاء لهم فى النمسا . لأن النمسا دولة محايدة ويجب أن تتوازن فى سياستها مع كل الأطراف فى العالم : شرقاً وغرباً وبين العرب جميعاً وإسرائيل . وعندما ذهبت جولدا مائير لزيارته أغضبها . وشكت من أنه لم يقدم لها فنجاناً من القهوة . .

وقد أعلن المستشار كرايسكى أنه لا سلام فى الشرق الأوسط دون أن تجلو القوات اليهودية عن الأراضى المحتلة كلها ودون أن يسترد أهل فلسطين أرضهم وحقهم فى الحياة . وغضب اليهود . . وآخر ما أعلنه كرايسكى : أن اليهود جماعة وليسوا شعباً !

وهذا قد أغضب اليهود جميعاً لأنهم يريدون أن يكون اليهود فى كل الدنيا شعباً واحداً وأن ولاءهم الأول لإسرائيل وليس للبلاد الأخرى التى يعيشون فيها . .

وعلى الرغم من أن اليهود قد عانوا كثيراً من الولاء لليهودية وعدم الولاء لكل البلاد التى يعيشون فيها . فهم حريصون على ذلك الآن لقد اتهمت الشعوب هؤلاء اليهود بأنهم جواسيس عليها وأنهم خونة . وأن لا ولاء عندهم لأى أحد غير أنفسهم ولا دين لهم إلا جمع المال . والإخلاص للأقوى . وقضية الضابط الفرنسى اليهودى دريفوس كان مصدرها أن الشعب الفرنسى يرى أن كل يهودى خائن . وأنه جاسوس عليه ، ولذلك قد حرموا على اليهود أن يكونوا جنوداً فى أى جيش ، وقد اختارت الشعوب كلها أن يموت أبناءها ويظل اليهود أحياء يبيعون ويشترون ويكسبون . فالشعوب تموت من أجلهم . ولذلك يجب طردهم من أى مكان .

وهذا هو الخلاف بين كرايسكى وإسرائيل . هو يرى أن اليهود يجب أن تكف عن إفساد حياة اليهود فى أى بلد . وتركهم يعيشون فى سلام . وهم يرون أن اليهود يجب أن يكونوا مواطنين إسرائيليين دائماً !

وعندما كنت أجلس مع بعض رجال السفارة المصرية بفيينا جاءتني فتاة نمساوية تقول :

- أنت هو منصور

- نعم .

- أريد أن أعرف رأيك في الذي قاله المستشار كرايسكي ضد اليهود .

وضحكت وقلت لها : أنت تريدين أن تعرفي رأيي في الذي قاله كرايسكي ضد اليهود ؟ لم أقرأ ما قاله ولكن سمعت به . . ولكنه على كل حال يعرف اليهود أكثر مني فهو يهودي كما تعرفين ولابد أنه كرجل قد صاغ عبارته بدقة . . فما الذي قاله بالضبط !

قالت : إننا جماعة ولسنا شعباً .

قلت : وأنت يهودية ؟

- نعم .

- أنا من رأي كرايسكي . . لأنه لا يوجد شعب يهودي . وإنما توجد ديانة يهودية . ثم إن اليهود هم عشرات الجنسيات . فنحن لا نستطيع أن نقول إنه يوجد شعب مسلم . . وإنما توجد شعوب تؤمن بالإسلام . . فهناك مسلم مصري ومسلم ياباني وهندي وصيني ومسلم إسرائيلي أي مسلم يعيش في إسرائيل وعنده الجنسية الإسرائيلية . . وفي وفد الأدباء الإسرائيلي واحد اسمه محمود العباسي رئيس تحرير مجلة الشرق . فهو مسلم إسرائيلي . . وكذلك لا يوجد شعب مسيحي وإنما شعوب مسيحية . . فهناك المسيحي الأمريكي والروسي والمصري واللبناني والإسرائيلي . . ولكن المشكلة في إسرائيل : إنها تطالب كل يهودي بأن يكون إسرائيلياً . ولذلك يثيرون المتاعب لليهود في كل مكان في الدنيا !

ولم تسترح لهذه الإجابة . فاقترحت عليها أن تسأل أخاً لكرايسكي يعيش في إسرائيل . .

وضاقت بهذه الإجابة مرة أخرى وعدت أقول لها : إن هذه المشكلة عائلية بين يهود إسرائيل ويهود النمسا . . أما نحن فلنا مشاكل أخرى مع اليهود مشاكل لم تنته بعد .

وسألتني إن كان هناك مانع في نشر هذا الحديث : فقلت لا أظن أن هذا ممكن !

وعرفت فيا بعد أنها مراسلة الصحيفة الإسرائيلية « هاآرتس » في مدينة فيينا .

واقتربت منها لأقول : إذا لم يكن فى استطاعتك نشر هذا الحديث ، فاقترح عليك أن تكتفى بنشر عنوان له . . واقترح أن يكون العنوان « اليهود ينتحرون فى العالم ، والفئران فى بحر الشمال » !

ولا داعى لأن أرى وجهها فقد امتقع تماماً وتوارت ، ومضيت أقول لنفسى إنهم فى أستراليا يصيدون الوحوش بأنواع من السهام اسمها « بويمرانج » أى السهام المرتدة التى إذا أطلقوها على الوحوش عادت إليهم مرة أخرى . . وهذه بالضبط هى السهام السامة التى يطلقها اليهود على العالم فترتد إليهم .

وتمنيت لو كان معى ذلك البحث الممتاز الذى ألقاه د . محمد عوض محمد فى المؤتمر الدولى لاتحاد الكتاب فى طوكيو وقد كان موضوعه : التفرقة العنصرية فى العالم . ولم يكتف بذلك بل إنه تحدث عن تجارة الرقيق أيضاً . . أى كيف أن جنساً يبيع جنساً آخر . . أى تصدير الزنوج إلى أوروبا ليقوموا بأحقر الأعمال فى المستعمرات وليكونوا جنوداً فى جيشها يدافعون عن اليهود البيض !

أما جدول أعمال المؤتمر نفسه فلا يتضمن شيئاً هاماً . وإنما جاءت الكلمات فى موضوعات تقريرية أو كأنهم كانوا يقرأون محاضر جلسات لمؤتمرات أخرى . .

ربما كان أحد علماء النفس الأمريكان ألطف وأعذب المتحدثين ـ من العذوبة ومن العذاب .

فالموضوع ممتع ولكن الرجل كان صارخ الصوت وكان ثرثاراً . فهو وجد المبرر المعقول لهذا الموضوع الخاص بالدراسات النفسية . فقال : إن الأدباء جميعاً يتكلمون عن المشاكل النفسية والغرائز والدوافع والعواطف والعقد . وهذه الآراء رغم أنها دقيقة فإنها واسعة الإنتشار لأن الأدباء أقدر على اجتذاب الناس بعباراتهم الجميلة وحيلهم النفسية . . أما علماء النفس فليس لهم هذا الحظ السعيد وما دام الأدباء يتصدون لقضايا علم النفس ، فلماذ لا يتصدى العلماء لقضايا الأدب والكتابة ويضعون الأدباء أنفسهم على مقاعد علماء النفس والعلاج النفسى ويشخصون أمراضهم . . لماذا لا يكون الأدباء

أنفسهم مرضى ينشرون عيوبهم وانحرافاتهم بين الناس ؟ لماذا لا نقوم بحماية الناس من أمراض أحب الناس إليهم . . إن هذه الأمراض النفسية والعصبية والعقلية موجودة فى كل الأعمال الأدبية والنفسية . فى القصة وفى الفيلم وفى الأغنية وفى اللوحات والتماثيل واللوحات المصورة !

وتحدث الأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات وهو من أصدقائى الذين أعجبت بهم قبل أن أقرأ لهم ثم بعد أن قرأت له وترجمت له خمس مسرحيات - ثم زرته فى بيته فى سويسرا مرتين ودارت بيننا مناقشة . سألته فيها عن الأعمال الأدبية العربية التى قرأها . . وسألته إن كان يعرف أى كاتب عربى فأجاب إنه لا يعرف أحداً ، ولم يقرأ إلا ألف ليلة وليلة . . أما المسرحيات التى ترجمتها له وظهرت على المسرح المصرى فهى : رومولوس العظيم والشهاب وزواج السيد مسسبى وهبط الملاك فى بابل وفرانك الخامس .

وأذكر أننى وجهت دعوة رسمية لديرنمات ليزور مصر وكذلك وجهت نفس الدعوة لصديق الكاتب السويسرى أيضاً ماكس فريش . وقد زرته فى بيته مع سفيرنا فى سويسرا فى ذلك الوقت : توفيق عبد الفتاح وقام السفير بدور المصور فألتقط له عدداً من الصور الجميلة . . ولكن فجأة تغير كل شىء . لا أعرف كيف . فديرنمات قد أعلن تأييده لإسرائيل . . . وماكس فريش قد سافر إلى إسرائيل وشارك بكتبه فى المعرض الذى أقيم هناك ثم أهدوه جائزة الكتاب . . ولابد أن اليهود قد أعجبوا بمسرحيته الشهيرة « أندورا » وأندورا هذه إحدى الإمارات على حدود أسبانيا والنمسا . وهذه المسرحية تتحدث عن النازى والتفرقة العنصرية وتدين الاثنين معاً . وفى هذا المؤتمر تبرأ ديرنمات من أن يكون عضواً فى أى جمعية أو فى أى حزب . . وقال إن هذه الأحزاب والمذاهب هى التى عذبت البشرية كلها .

ولم يصفق له أحد لأنه شتم المؤتمر الدولى الذى دعاه لالقاء هذه الكلمة التى تعتبر بلغة كرة القدم « نوعاً من التسلل » .

وفى اليوم التالى قال فى كلمة أخرى : الصهيونية ككل الأديان كالإسلام والمسيحية . . فإذا أدان أحد الصهيونية فيجب أن يدين هذه الأديان . . والصهيونية مذهب سياسى فإذا أدانها أحد وجب عليه أن يدين الشيوعية والاشتراكية أيضاً . . ثم أن الصهيونية خاصة باليهود أنفسهم . ولذلك أدانتها قضاء على عضو فى الأمم المتحدة هو إسرائيل .

وصفق له اليهود واتجهت العيون ناحيتى وظللت واضعاً ساقاً على ساق.

وربما كان ديرغمات هذا هو الأديب الوحيد الذى له شهرة عالمية.

ولم يظهر أحد من طراز آرثر ميلر الذى رأس هذا المؤتمر منذ سنوات.. وهو يهودى!

ولا ألبرتو مورافيا الذى استضافة المؤتمر منذ سنوات أيضاً وهو يهودى!

وقد ناشدنا أحد المتحدثين اليهود أن نعود إلى بلادنا ونطلب إليها أن تراجع نفسها فى هذا القرار الذى شاركت فيه..

وهو ككثير من الأوروبيين لا يعرفون الحقيقة التى نعانيها ونتعذب بها فى الشرق الأوسط..

إن هذا الرجل يتذكر الذى فعله هتلر باليهود وهو معذور ولكنه لا يعرف من الذى انتقم منه اليهود أنهم لم ينتقموا من الألمان.. ولكنهم انتقموا من العرب.. ووجودهم لا يزال انتقاماً مستمراً لجريمة لم يرتكبها أحد منا..

واحترم مؤتمر الأدباء العالمى نفسه وميثاقه الأساسى فلم يتخذ قراراً لأنه ليس منظمة سياسية، وانصرف الأعضاء إلى حفلات الوداع الفخمة.. التى أقامها المستشار كرايسكى والتى أقامها فرع المؤتمر فى مدينة فيينا.. وكانت موسيقى الفالس وكانت زجاجات الشمبانيا.. والملابس السوداء للرجال والعارية للنساء.. وتغيرت معالم الجميع.. إنها أكثر شباباً وحيوية وجمالاً ودلالاً وفناً..

وكنت قد أقفلت حقائبى على بدلى السوداء الوحيدة التى تكرمشت طبعاً والتى لابد أن أخنق رقبتى فوقها أو تحتها بكرافتة محتشمة.. ولذلك فضلت أن أجلس وأن أتحدث عن شىء آخر وعن الذى سوف أكتبه بعد ذلك.

وإلى اللقاء فى لندن مع ٣٠٠ آخرون من الذى يأكلون الورق، ويشربون الحبر ويموتون فى النور، ويدفنون فى النسيان، وتوضع على أجفانهم التيجان.. ومشاكل أخرى..

الشعب المختار
فى زجاجة نبيذ فارغة !

الدين وسيلة مواصلات فقط . ولذلك يجب أن نبق فيها بعض الوقت ، لا كل الوقت ، ولو فعل اليهود ذلك ما قامت لهم إسرائيل ـ هذه العبارات لمؤسس إسرائيل بن جوريون . وهو يعتقد أن حياة اليهود لو تركت لحاخامات اليهود لظلوا حتى الآن كلابا ضالة فى كل مكان . . يضربهم الناس بالاقدام ، ويحتمى اليهود من أقدام الاغلبية الساحقة لهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض المعاد والاجداد ، وانتظار المسيح الذى يهبط عليهم من السماء لينقذهم ويقوم لهم بكل العمل بينما هم يصلون الفجر والعشاء ويبكون ليلا ونهارا . وهم يفعلون ذلك من ألوف السنين ـ وهذا أيضا رأى بن جوريون ..

وقد صدر له كتاب بعنوان « بن جوريون ينظر وراءه » . . والكتاب على شكل حوار مع دافيد بن جوريون . أجرى الحوار كاتب يهودى اسمه موشى برلمان ،

وبن جوريون يؤكد أن كبرى مشكلاته السياسية والاجتماعية فى إسرائيل ، أن حكومته ائتلافية دائما . وهى كذلك من ربع قرن . وتضم هذه الحكومة كل العناصر اليهودية المتطرفة : الملحدين والمتهوسين من رجال الدين . واليهود بتكوينهم النفسى والتاريخى متطرفون . ولم يفلح الزمن فى أن يذيب هذه الفوارق بين الشيوعيين الروس الذين أنشأوا

اسرائيل وأصحاب الملايين الامريكان الذين ينفقون عليها . ففكر اسرائيل من صنع الشيوعيين الروس ، وتسليح إسرائيل من جهود أصحاب الملايين الأمريكان . . ويعترف بن جوريون بأنه حريص على أن تكون حكومته ممثلة لكل الألوان . ولكنه فى نفس الوقت لا يطيق أن يكون الدين هو الباعث الوحيد لكل شىء .

صحيح أن الدين والأحلام المجنونة هى التى جمعت الشعب اليهودى المتفرق فى كل أرض . ورغم اختلاف الأرض واللغة والطبقة من كل اليهود فإن الدين قد جمعهم . وأشعل النار فيهم . وألهمهم الصبر على الهوان فى كل زمان .

ولذلك كان من أول همومه السياسية والاجتماعية أن يأتى باليهود إلى إسرائيل ، تحت أى ستار ، وتحت أى شعار . وبعد ذلك يقطع ما بينهم وبين البلاد التى جاءوا منها . ثم يعزلهم تماما فى المستعمرات . ويشغل أيديهم بالأعمال اليدوية . لم يكونوا فلاحين فى أى عصر . ولذلك يجب أن يزرعوا ويقلعوا ويحصدوا .. لم يعيشوا فى الصحراء ، ولذلك يجب نشرهم وعصرهم وتجفيفهم فى الرمل وتحت الشمس . كان اليهود يتكلمون عشرات اللغات ، فن الواجب أن يتحدثوا لغة واحدة . هى العبرية . وهى لغة ماتت على كل لسان من ألوف السنين . فإذا تكلموا العبرية أقاموا فى إسرائيل . وانعزلوا عن كل دولة أخرى . وأصبحوا فى نفس الوقت عاجزين عن الهجرة من إسرائيل إلى أى بلد آخر . فاللغة ارتباط ورباط .

وهو يعلم أن الكثير من مبادىء الدولة الحديثة لا يقرها الدين اليهودى . فالخدمة العسكرية حرام . والطعام الذى يأكله الناس حرام . . ولذلك يجب أن تكون هناك أطعمة خاصة . يسمونها الأطعمة الكوشير ـ أى الحلال ـ وهذه الأطعمة لها شروط خاصة . فاللحم يجب أن يذبح ويطبخ بطريقة معروفة . ويجب أن يكون شخص واحد هو الذى يذبح الحيوانات والطيور . وهذا الشخص يجب أن يحصل على ترخيص من أعلى الهيئات الدينية .

مثلا : يجب أن يذبح الحيوان بضربة سكين واحدة . أى أن السكين يجب أن تكون حادة . . وأن تمشى على عنق الدجاجة أو الخروف فى اتجاه واحد ومرة واحدة وإلا كان حراما . ووجد بن جوريون أنه من الصعب أن يرضى كل المذاهب الدينية . . ولذلك قرر أول الأمر أن يكون هناك طهاة من رجال الدين . . وأخيرا أن يكون كل الطعام فى

الجيش دينيا . .

وهو فى نفس الوقت لا يعرف ما الذى يمكن أن تفعله الحكومة أمام رجال الدين الذين يضربون كل من يركب سيارة يوم السبت أو يفتح دكانا أو مطعما . فمن المشاهد المألوفة جدا أن تجد أناسا قد طالت لحاهم يحملون أكياسا من الظلط يرمون بها المشاة وأصحاب المطاعم وأصحاب الفنادق فى يوم السبت . . أو أن تجد واحدا من رجال الدين قد حمل حاجزا من الاسلاك الشائكة ووضعه فى الطريق العام وجلس أمامه أو خلفه ليمنع حركة المرور . لأن هذا - بنص التوراة والتلمود - حرام . .

ورجال الدين كانوا ولا يزالون يرون أن الشعب اليهودى يجب أن يظل يصلى ويبكى حتى يجىء المسيح . . فإذا جاء تولى هو عن كل الشعب اليهودى العودة والخلاص من العذاب . . ويقول بن جوريون : إن الكثير من اليهود قد أحرقوا وأغرقوا . . ولكن هذه بطولات سلبية . وأن الدين يجب أن ينتهى . فدوره قد تجاوزته المجتمعات الحديثة . هذا رأيه . ولكنه لا يستطيع أن يفرضه بالقانون . لأن المجتمع اليهودى ممزق . . ففيه الملحدون وفيه الذين يصلون على قطعة حجر يضعونها بين عيونهم . ويحملون معهم هذا الحجر فى كل مكان . لأن التلمود يقول : « ضعوا التوراة والمعبد بين عيونكم » . . وعلى الرغم من أن المعنى هو أن يحرصوا على التلمود وعلى التوراة وعلى المعبد ، فان رجال الدين اليهود يرون أن المعنى يجب أن يكون حرفيا . ولذلك يلفون رؤوسهم بأشرطة أو أحزمة وقد تعلق منها نموذج خشبى أو حجرى من التوراة فإذا صلوا وضعوا رؤوسهم فوق الحجر !

وفى المجتمع الإسرائيلى الحديث مشاكل الزواج والطلاق . وأين ينعقد هذا الزواج . الاتجاه إلى عقده مدنيا . ولكن الأحزاب الدينية ترى فى ذلك نوعا من الزنا . ولذلك لابد من توثيق العقود دينياً . أو عقدها مدنياً وتوثيقها دينياً . وتواجه الحكومات الائتلافية فى إسرائيل حملات عنيفة فى المعابد ولعنات من رجال الدين لأنها حكومات ملحدة فاسقة .

ويتجه بن جوريون فى محاوراته إلى قضايا هامة وهو يتحدث فيها بإطالة وإسراف . لأنه يريد أن يدفع عن اليهود كل التهم ، التى وجهت إليهم فى كل العصور . من بين هذه التهم أن اليهود شعب يحتقر كل الشعوب الأخرى . ويرى أن كل الناس لصوص لثرواته . لأن التوارة قالت لهم إن الأرض لكم ومن عليها من

الناس عبيد لكم . وما عليها من الحيوانات والنباتات طعام لكم ، هذا وعد وعهد بين إبراهيم والرب ، وبين موسى والرب وبين سليمان والرب . .

ويقول بن جوريون : أبدا ليس صحيحا إننا قلنا عن أنفسنا إننا شعب الله المختار . ليس صحيحاً أن الله قد اختارنا . ولكن الصحيح هو إننا الذين اخترنا الله . فالله قد عرض « الوصايا العشر » على كل الشعوب . ورفضتها كل الشعوب لأنها صعبة عسيرة . فهو قد عرض على الشعوب ألا تسرق وألا تقتل . فقالوا : لا نقتل نعم . ولكن لا نسرق هذا صعب . وعرض على شعوب أخرى : ألا تعبد غيره وألا تزنى . . فقالوا : لا نعبد غيرك نعم . وألا نزنى فهذا غير مستطاع . . ولكن اليهود وحدهم هم الذين اختاروا الوصايا العشر . . فهم هكذا اختاروا الله ، ولكنه ليس هو الذى اختارهم . فهم الشعب المختار . . أى الذى اختار الله . . وليسوا الشعب الذى اختاره الله . .

ويشير بن جوريون إلى ما جاء فى سفر يشوع الأصحاح ٢٤ والآيات ١٤ و١٦ و٢١ و٢٢ :

« الآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى عبر النهر وفى مصر واعبدوا الرب . . فأجاب الشعب وقالوا حاشا لنا أن نترك الربَ لنعبد آلهة أخرى . . فقال الشعب ليشوع لا ، بل الرب نعبد . فقال يشوع للشعب أنتم شهود على أنفسكم إنكم قد اخترتم لأنفسكم الرب لتعبدوه . فقالوا نحن شهود »

ويناقش بن جوريون ما قيل عن اليهود : إن الرب طلب منهم أن يتسلطوا على العالم كله . ويقول : بل الرب طلب من إسرائيل أن تسمو روحيا على كل الشعوب . وذلك بأن تحارب الرذيلة وتدعو إلى الفضيلة وإلى السلام . وأن الشعوب كلها سوف تتعلم من إسرائيل . أى مطلوب من إسرائيل أن تكون « نموذجا أخلاقيا » لكل شعوب العالم .

ويقول بن جوريون إن التوراة لم تتحدث عن « دولة » نموذجية . وإنما عن « مجتمع » نموذجى . . فاللغة العبرية لا توجد بها كلمة دولة . . وإنما الدولة بالعبرية تقابلها كلمة « مدينة » . مدينة إسرائيل ، أى دولة إسرائيل . .

ولذلك يتحدث النبى اشعياء فى أيامه الأخيرة عن خلاص اليهود والشعوب كلها فيقول (الأصحاح ٢) والآيات ٢ حتى ٤ :

« ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال . . ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه كل الأمم . وتسر شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت الرب يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة . . ومن أورشليم كلمة الرب . فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرة فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتكلمون الحرب فيما بعد . . »

وفى أشعياء أيضا (الأصحاح ١٤) : لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريحهم فى أرضهم فيقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب . .

ويستنتج بن جوريون من ذلك أن الشعب اليهودى قد اختار لنفسه أن يكون هادياً لكل الشعوب بما عنده من مثل عليا وأخلاقيات نبيلة جداً . . ولابد أن رجال الدين يرون حال المجتمع اليهودى بكل ما فيه من أعمال وحشية دموية ، وكذب وسرقة ونهب وتآمر ، ويرون أن بن جوريون هذا ملحد . فهو كافر بدينه نفسه ، وبواقع مجتمعه الذى يقوم على احتقار كل الوصايا العشر التى تركها موسى لليهود . .

وبن جوريون ـ ككل اليهود ـ يغالط ويراوغ . لأن التوراة صريحة والتلمود أكثر صراحة فى اعتبار اليهود سادة الشعوب . ويجب أن يكونوا كذلك ولكن بن جوريون يقول : كيف نكون سادة العالم ونحن أقلية تعتمد على الأغلبية فى كل مكان . . كيف يكون اليهود سادة العالم وأيديهم ممتدة وراء البحار يطلبون المال والسلاح والأمان والثقة والعطف من كل الناس . . يقول : لسنا الآن فى حالة تسمح لنا بأن نقول ذلك .

أى أن الحالة الآن لا تسمح . . ولكن سوف يجيء اليوم الذى يجب أن تسمح فيه كل الظروف بأن يخربوا الدنيا ويجلسوا على تلالها كما تقول التوراة . . أو عندما يسود الرخاء كل مكان وتتعالى المقاعد الذهبية التى يتربع عليها اليهود ليتسلموا « العهدة » تنفيذا للعهد . . أى ليحكموا العالم كله . . وكل الشعوب التى تقاومهم مدعية أن اليهود يعتدون عليهم أو يسلبونهم أرضهم أو أرزاقهم ، هذه الشعوب كافرة ملحدة لأنها تعطل مشيئة الرب الذى اختار اليهود ، واختار لهم كل الأرض ومن وما عليها ؟!

ويعود بن جوريون فى أكثر من موضوع من هذا الكتاب وينفى عن الشعب اليهودى أنه قال أنه سيد الشعوب . وينفى أيضاً عن أنبيائه أنهم طالبوا اليهود بأن

يعملوا على السيطرة على كل الناس. ولكن بن جوريون يعلم أن الذى يقوله كذب ومغالطة. وأن التلمود فى متناول كل الناس. وأن التلمود يحتقر كل الأديان وكل الشعوب. ويدعو اليهود فى كل أرض وفى كل زمن إلى السيطرة على الدنيا..

ويندهش جدا كيف أن إحدى السفارات المصرية فى أفريقيا قد نشرت صورة كاريكاتورية تضم عدداً من اليهود الأمريكان قد التفوا حول الوزارة الأمريكية. وقالت الصحيفة المصرية إن هذه هى الوزارة الأمريكية.. ومن ورائها الحكومة السرية لليهود.. أى « القهالة ». أما هذه القهالة فكانت تضم: السناتور لحمان والبروفسور أوبنهايمر أحد مخترعى القنبلة الهيدروجينية، والمستر فرنكفورتر رئيس المحكمة العليا ثم الأميرال ريكوفر. ويتضايق جداً بن جوريون لأن الصحيفة المصرية قالت عنهم: هؤلاء هم حكماء صهيون الذين وضعوا البروتوكولات المشهورة فى سويسرا سنة ١٨٩٧. وقالت الصحيفة المصرية أن « بروتوكولات حكماء صهيون » هى الخطة السرية التى تتولى هذه الحكومة السرية تطبيقها فى أمريكا وفى أوروبا للسيطرة على العالم، وتخريبه قبل السيطرة عليه!

ويتوقف بن جوريون طويلاً وكثيراً دفاعاً عن اليهود وعن إسرائيل، ويقول: إنها مشكلة زجاجة نبيذ.. فالوضع الآن هو ما يأتى: كانت هناك زجاجة نبيذ.. أفرغت هذه الزجاجة ثم ملأنا الزجاجة بالماء، ولكن بقيت فوقها ورقة مكتوب عليها أنها زجاجة نبيذ. والخلاف بيننا وبين العالم كله: أن العالم يقول إنها زجاجة نبيذ. ونحن نقول: كانت زجاجة نبيذ.. العالم كله يقول إن اليهود يعيشون على أنهم سادة البشر وأنهم يجب أن يتمكنوا من رقاب العالم كله.. ونحن نقول: كان هذا رأى اليهود من ألوف السنين.. ولكن ليس هذا رأيهم الآن!

ولكن بن جوريون يغالط طبعا.. فلا تزال الأحزاب الدينية والكتب الحديثة التى تصدر عن إسرائيل تؤكد ما يريد أن ينفيه. فالزجاجة كان بها هذا النبيذ المعتق، شعب الله المختار وأفرغت الزجاجة. هذا صحيح. ولكن عادت إسرائيل وملأتها بنبيذ آخر معتق.. أو أن الذى حدث هو أنه كانت هناك زجاجة نبيذ صغيرة.. ثم أتت إسرائيل بزجاجة أكثر وأطول وأعرض. وتدعى اليوم أن إسرائيل يجب أن تكون أكبر.. وأن تمتد من النيل إلى الفرات، وفى الكنيست الإسرائيلى خريطة إسرائيل الكبرى.. فليس صحيحا ما يدعيه بن جوريون، وليس صحيحا ما يتظاهر به من كراهية للدين، وإظهار

نفسه رجلا متحرراً . والحقيقة أنه شديد التعصب للدين والشعب . والتمسك بالأرض التى سرقهـا ، والأرض التى يريد أن يسرقهـا ولم يعـد أحـــد يعبأ كثيراً بالورقة المكتوبة على الزجاجة !

ويدرك بن جوريون أن العالم لن يصدقه بسـهولة ، ولذلك يقـول : إن هناك نكتة للأديب المعروف باسم (سلام عليكم) يقول فيها : إن الفقـير يأكل الفـرخة إذا كان مريضا أو إذا كانت الفرخة مريضة . .

ويتساءل بن جوريون : ولكن لماذا لا يأكلها لأنه فى صحة جيدة ؟ لماذا ؟

لأن العالم لم يعد يصدق ما تقولون !

غرف الطعام: هي المثل الأعلى

أى نوع من البشر هؤلاء الشبان الذين يحاربون فى الجيش الإسرائيلى . . أى نوع من الناس هؤلاء الذين سوف يحكمون إسرائيل فى الأجيال القادمة . من أين جاءوا ؟ ما ألوانهم ما مذهبهم ؟ ما هى لغتهم . . إنهم طراز مختلف تماما عن كل أنواع اليهود الذين عرفهم العالم . لأن إسرائيل قد قامت « بتخليق » هذا الجيل . جاءت بهم من بلاد مختلفة . وضعتهم فى قوالب من حديد . جردتهم من الأب والأم واللغة والدين أحيانا . وربطتهم بهذه الأرض المسروقة .

عشرات من الكتب والدراسات قد صدرت فى إسرائيل وفى أمريكا عن حياة المستعمرات اليهودية . ولكن أفضل هذه الدراسات وأشملها ما كتبه العالم الأمريكى اليهودى برونو بتلهايم بعنوان : «أولاد الحلم ـ التنشئة الجماعية للطفل ودلالاتها للمجتمع» .

وهذا المؤلف له دراسات رائدة فى تربية الطفل ، لذلك فحكمة على بنى قومه له أهمية بالغة . .

فالحياة فى المستعمرات اليهودية جماعية . . الكل يعمل . . والكل ينام فى مكان واحد . ويأكلون فى مكان واحد . الأطفال بعيدون عن الأمهات . ولا أحد يملك أى شىء .

ولابد أن يكون سبب هذه الحياة معا فى « القبوتس » أن اليهود قد ضاقوا بالحياة فى حارات اليهود فى أوروبا . فنى قلب كل مدينة يوجد حى ضيق مظلم قذر كله أبواب عالية . . هذا الحى هو حارة اليهود . البيوت متجاورة والأبواب مغلقة والنوافذ ، ووراء هذه الأبواب تعيش الأسرة اليهودية متراصة متماسكة متمسكة بتعاليم التلمود . ويتربع الأب على هذا العرش الذليل لكل أسرة . فنى داخل الأسرة نفسها توجد قيود عنيفة فاذا ذهب الطفل إلى المدرسة الدينية واجهته قيود أعنف . .

وقد بدأت حركة التحرر من حارات اليهود فى ألمانيا . وكان لهذه الحركة اسم هو «الطائر الحائر» ـ إو فوندر فوجل . . وكانت هذه الحركة تدعو إلى ضرورة الهرب من إرض إلى إرض . .. وترك الحارات إلى إى مكان آخر أفضل . .

وقد تشجعت هذه الحركة اليهودية عندما سادت أوروبا حركة تنوير واستنارة . وعندما انتشرت الاشتراكية والماركسية ونادت بالإنفتاح بين الطبقات وبين الشعوب واستبعدت كلمات الأقلية والأغلبية والطبقية والدينية . وفى ذلك الوقت كان اليهود يتكلمون لغة غريبة هى خليط من العبرية والآرامية وأكثرها ألمانية واسمها : بيديش . وهى لغة خاصة بهم وحدهم . ولم يفلح أحد فى أن يجعل لهذه اللغة أية قواعد . . فطائفة اليهود إلى جانب القيود التى ضربوها على أنفسهم وحولها ضيقوها أكثر عندما توارثوا هذه اللغة الخاصة .

وكل ما كان يتمناه اليهود هو أن تكون لهم ظروف اجتماعية أفضل وأوسع ليختاروا شكل الحياة التى يريدون وليربوا أطفالهم بصورة أحسن ، ولذلك عندما هاجروا إلى فلسطين كانت أحلامهم أن يبنوا القبوتس ، هم الذين يبنونه ، أى لا حارات لليهود . . لا عزلة . . لا إنطواء . . وكل ما يريدونه هو أن يكونوا قادرين باختيارهم على التوافق مع المجتمع الجديد . .

ولكن من المشاكل التى واجهتهم أن معظم المهاجرين إلى إسرائيل كانوا من أبناء الطبقة الوسطى فى أوروبا . أى لم يكونوا من سكان حوارى اليهود . فلم تكن بهم حاجة كبيرة إلى أن يعيشوا فى القبوتس . فقد كانت حياتهم واسعة الشوارع ، وبيوتهم مفتوحة النوافذ .

ولكن لم تكن لهم تجربة بالحياة فى الحقول أو فى الصحراء . . فليسوا مثل الأمريكان الذين انتقلوا من شرق أمريكا إلى غربها . فلم يشعروا بشىء من الغرابة . وإنما كانوا

حرفيين . ولم تكن لهم أية تجربة فى الزراعة . ولذلك كان أول ما يجب أن يعمله أبناء المستعمرات هو زراعة الأرض وإصلاحها ولم تكن لهم تجربة الحياة معا . لقد كان من عاداتهم أن يعيشوا على شكل أسرة : أخ وأخت وأب وأم . ولكن فى المستعمرة : لا أخ ولا أخت ولا أب ولا عم . . وإنما أطفال من كل لون ومن كل لغة معاً .

صحيح أن الصحراء واسعة وأفراد الأسرة الواحدة كثيرون ، أو أبناء المستعمرة الواحدة كثيرون ، ولكن هذه الكثرة لم تحقق الغرض الأول : وهو الأمان . فما تزال الحياة فى إسرائيل صعبة . فالخوف هو أهم معالم الجو الاجتماعي والسياسى . ولذلك فهذا الخوف قد تسرب إلى المستعمرات . فإلى جانب الخوف ، هناك عدم الألفة والتآلف بين الجميع .

والذين يشرفون على المستعمرات من كبار السن . وهم يدركون بوضوح أن حياة حارة اليهود كان يسودها أن الجميع من دين واحد . أو من مذهب دينى واحد . ولكن فى المستعمرة لا ضرورة للدين أو للتمسك به . . فهناك احساس جديد بأن الدين كان سبباً فى عذاب اليهود مئات السنين . وإذا كان الدين قيد حياتهم حتى اليوم ، فانتهت رسالته ، ويجب أن يعدلوا عنه . . ولكن عندما جرد هؤلاء الشبان من الدين ، لم يعطهم أحد شيئا جديدا يربطهم بالقيم الأخلاقية . أو يربط الأرض بالسماء ، أو هذه الحياة بما بعدها . .

والديانة اليهودية تعطى للرجل الكثير . وتحرم المرأة من الكثير . ففى صلاة الفجر وفى الدعوات ليلا ونهاراً يقول الرجل وعلى مسمع من زوجته وابنته : حمداً لك يارب انك لم تخلقنى امرأة !

ولذلك كان لابد من إلغاء التفرقة بين الرجل والمرأة . كما ألغيت الفوارق بين المذاهب الدينية ، وبين العائلات الغنية والفقيرة ، وبين اليهودى الشرق واليهودى الغربى . . وكان على المرأة أن تتحمل إلغاء هذه التفرقة . . فلم تعد المرأة كما كانت فى حارة اليهود هى التى تطبخ وتغسل وتكنس فى انتظار الزوج والأولاد . وإنما المرأة عليها أن تعمل شيئا آخر ـ أى شىء آخر ـ . . وإذا كانت الولادة والحمل هى التى عوقت تطور المرأة ، فلا داعى لأن تحمل أو تلد . . ولا داعى حتى أن تتزوج ، وهى حرة أن تكون لها ما تشاء من العلاقات . . ثم ما هذه العلاقات الجنسية بينها وبين الشبان الآخرين . .

إنها فى كثير من الأحيان لا تجد هذه الرغبة . . فالشبان والشابات يعملون معا وينامون معا . . ويرون أنفسهم عراة فى أى وقت . . فلا شىء هناك يغرى أو يلهب الإحساس . . وما هو هذا الحب ؟ ولماذا حب واحدة ؟ ثم ما هو الغرض من الحب ؟ هل هو الزواج ؟ وإذا كانت المرأة لا تريد الزواج حتى لا تحمل أو تلد ، فلماذا الزواج . . ولماذا الأولاد ؟

وفى بداية بناء هذه المستعمرات كانت هناك مواقف مضحكة . فالمرأة التى قررت المساواة بالرجل ، أو قرروا لها المساواة بالرجل ، كانت تدرك أن الفوارق الحسية هى المسئولة عن كل ما تعانيه المرأة ، فالمرأة لا تريد أن تكون لها أى ملامح بارزة . ولذلك ارتدت ملابس الرجال وراحت تمارس الأعمال العنيفة . . ولم يكن فى استطاعتها أن تستمر طويلا فى ذلك كله دون خلل نفسى أو عضوى أو دون ارتباك فى المستعمرات كلها .

وأدركت المرأة أيضا أن سبب تأخرها هو أن البيت والأطفال فقد استغرقوها حتى أغرقوها . فلا وقت عندها للقراءة أو الكتابة أو تنمية اية موهبة . ولكن اذا تخلت عن الواجبات التقليدية أصبحت شيئا . وتخلت عن كثير من هذه الواجبات التقليدية ولم تصبح شيئا بعد . .

وأدرك الذين أقاموا المستعمرات ، أن عندهم مشكلة أخطر من ذلك . فالعمال فى العالم كله عندما ثاروا على الظلم كان ذلك من أجل أوضاع عادلة . . وهذه الأوضاع تعيد لهم التوازن الاجتماعى والاقتصادى . أما اليهودى فله مشكلة قديمة وهى أنه « يهودى » . . كل شىء حوله يؤكد ذلك . . والمرأة اليهودية مشكلتها أعقد . فإلى جانب أنها يهودية هى امرأة أيضا ولذلك ، فقد كان اليهود يحلمون بمجتمع ينسون فيه أنهم يهود . فهم جميعا يهود . ولكن لاأحد يشعر بأنه أقلية أو أنه منبوذ . .

ولكن كان على الرجل اليهودى أن يتحرر من رأيه القديم فى المرأة أيضا . فدينه يقول أن المرأة لعنة . وأن هذه اللعنة أصابت الرجل وتسلطت عليه ، حتى شعر المرأة يراه الدين اليهودى لعنة من اللعنات . ولذلك كان العريس يرى أن الطهارة هى أن تحلق المرأة شعرها قبل الزواج . .

وكان من الممكن أن تمضى الحياة فى المستعمرات على النحو الذى أراده هؤلاء الحالمون ، لولا أن أبناء القيبوتس عندما يذهبون إلى المدن يجدون اليهود الآخرين يعيشون

حياة عادية . . الرجل له زى والمرأة لها زى . والمرأة حرة فى أن تأكل وتشرب وتحب وتتزوج ويكون لها أى عدد من الأولاد . . بينما المرأة فى القبوتس لا تستطيع أن تحمل أو تلد . ثم إن حياتها من نوع آخر . فلماذا ؟ أليسوا جميعا من اليهود ؟ ولماذا هؤلاء اليهود فى الصحراء يزرعون ويغرسون وينامون معا ويأكلون معا . . بينما غيرهم يعيش على هواه وفى شقق خاصة . . ثم إنهم لا يزرعون الأرض ولا يرتدون ملابس الرجال . . وحياتهم أكثر بهجة وأقل تعاسة . . أكثر من ذلك : هؤلاء اليهود فى أمريكا وبريطانيا وألمانيا إنهم ليسوا تعساء هكذا . . فلماذا هم وحدهم الذين يطبقون هذا الطراز من الحياة . . لماذا هم وحدهم المطالبون بصيانة إسرائيل والبكاء على ما كان فى تاريخهم . . وغيرهم من اليهود لا يبكون ولا يموتون فى الدفاع عن الأرض ؟ !

إن أساس الحياة فى المستعمرة : أن لا فرق بين الرجل والمرأة ، فإذا أحس كل واحد منهما بضرورة أن يكون هناك فرق ، انهدمت المستعمرة . .

وأساس الحياة هنا ألا يعرف الطفل أبويه بعد اليوم الرابع من ولادته . وإنما ترعى جميع الأطفال سيدة أو فتاة لم يكن لها أطفال أو تريد أن يكون لها أطفال . . ويتجاور الذكور والإناث . . لهم نفس الملابس . . ونفس الأشياء التى يلعبون بها . . لا تفرقة فى الملابس ولا فى حجم أو لون اللعب . . ولا يحق لأى أب أو أم أن يأتى لابنه بهدية أو ملابس أو تطول جلسته مع الطفل أكثر من غيره من الأطفال . . وإذا تعلق الطفل بوالديه ، كان هذا اخلالا بأساس التربية الجماعية . . وإذا ارتكبت احدى الأمهات حماقة ، أن تحتضن طفلها وتبكى على فراقه منعوها من زيارته . . لأن هذه الدموع سوف تذيب الحديد الذى قامت عليه الحياة الجماعية فى المستعمرة !

الشىء الجديد الرائع ـ كما يقول العالم الكبير برونو بتلهايم ـ فى هذه المستعمرة هو غرفة الطعام . هنا كل القيم الأخلاقية والسياسية والدينية . هنا كل شىء . ولكى تدرك أهمية غرفة الطعام يجب أن تعيد الى الذاكرة كيف كان اليهود فى حاراتهم يأكلون . إنهم يصلون قبل الأكل وأثناء الأكل وبعد الأكل . ولابد لكل واحد أن يغسل يديه وأسنانه وأن يتطهر . ويجلس الأب على المائدة يصلى . وأحيانا يبكى . أما الأم فقد انهد حيلها طول النهار فى إعداد الطعام . والأم ترى أن أهم واجباتها هو أن يأكل أطفالها . وكلما أكل الأطفال أكثر كان ذلك أفضل . فالطعام نوع من

الحماية لهم ، واليهودي بطبعه خائف من كل شيء : من المرض . من الموت . من الإنقراض . ولذلك فأول واجبات الأم هو أن تجعل طعامها هو الدرع الواقية لأطفالها . والطعام في الحارة يجب أن يكون « كوشير » أي حلالا . . أي مطبوخا بطريقة خاصة نص عليها التلمود ومن قبله نصت التوراة . .

أما في غرفة الطعام الجماعية في المستعمرة : فلا أب ولا أم . ولا صلاة ولا ضرورة للدعاء أو البكاء . ولاضرورة لغسل اليدين أو الفم . ولا أب يجلس على رأس المائدة ولا أم تتلفت الى من الذى أكل ومن الذى لم يأكل . ولا أخ ولا أخت . . الكل يجلس في مكان عام . وليس أمامه إلا هذا الطعام . وليس لديه أي اختيار . وليس من حق أي أحد ان يشترى طعاما خاصا ويأكله في غرفته . . هذه كبرى الخطايا !

وهناك مشكلة هامة عند اليهود في هذه المستعمرات . فهناك مستعمرات تملكها الأحزاب السياسية الملحدة . . وهناك مستعمرات تملكها وتديرها الأحزاب الدينية . . فنحن أمام شباب ملحد وشباب متهوس دينياً . والنوعان يعيشان في مجتمع واحد ليس فيه أمان لأحد . وفيه تساؤلات كثيرة : لماذا نحن دون كل يهود العالم نتعذب هنا ونموت هنا ؟

ثم هناك يهود كثيرون لا يعيشون في المستعمرات وإنما في المدن . . ثم هناك يهود لا يعيشون في إسرائيل .

إن إسرائيل أرادت أن تقضى على « حارات اليهود » في أوروبا . . فأقامت من جديد حارات أخرى لليهود في إسرائيل . ففي إسرائيل تفرقات دينية وسياسية . . وتفرقات شديدة بين اليهودى الألماني واليهودى الأسباني ـ أي اليهودى الغربي واليهودى الشرقي . . وبين اليهودى الأمريكي واليهودى اليمنى .

إن المجتمع الاسرائيلى يغلى أو أناء يغلى : هم النار والأناء والماء والدخان والخوف والموت لهم على كل الحدود .

فعلا ...
أغرب شعب فى العالم

وقف أحد النقاد يتفرج على معرض للوحات الحديثة فى مدينة برلين . نظر إلى اليمين فقال : هذه المجموعة من الفنانين لها أسلوب غريب . . ثم اتجه إلى اليسار وقال : وهؤلاء أغرب ، ونظر وراءه وقال : ولكن هؤلاء أعجب من الجميع . .

وخرج من المعرض يضحك بصوت مرتفع وهو يقول : وأنا أعجب من كل هؤلاء !

أما الذى أضحكه فهو أنه يهودى وكل أصحاب هذه اللوحات من اليهود أيضا !

بهذا المعنى يبدأ الكاتب اليهودى بارنيت لتفينوف دراسة طويلة مفيدة لليهود فى العالم كله . ماذا جرى لهم وما الذى فعلوه بالبلاد التى هاجروا إليها . كتابه عنوانه « شعب غريب ـ داخل العالم اليهودى اليوم » فهو يرى أن اليهودى فى أى مكان ، لا ينسى أنه يهودى . لا هو ينسى ولا أحد يجعله ينسى . ولكن الكثيرين جداً من اليهود لا يعرفون دينهم . رغم أنهم يهود ، بل إنهم ميالون إلى التخلى عن هذا الدين . فقد تعبوا من أنهم يهود .

ومن الممكن أن يقوم اليهودى بطهارة أولاده وهم صغار ، لأسباب صحية ، دون أن

يربط هذا الإجراء بذلك العهد الذى تم بين الرب وبين إبراهيم عليه السلام ، منذ أربعة آلاف سنة ـ الفراعنة قد سبقوا إبراهيم إلى ذلك بأكثر من ألف سنة !

وعلى الرغم من أن اليهود يحرصون أو يضيقون بأنهم يهود ، فإن اليهود أنفسهم لم يتفقوا على من هو اليهودى . . أسهل تعريف لليهودى : أن كل من كانت أمه يهودية فهو يهودى . الأب لا يهم سواء كان يهودياً أو من أى دين آخر . . وفى إسرائيل خلافات كثيرة جداً حول ذلك . ولكن نفرض أن يهودية أنجبت طفلا غير شرعى هل هو يهودى ؟ نفرض أنها تزوجت يهودياً زواجاً مدنياً فهل هى وزوجها يهوديان ، وهل أولادها يهود ؟ ، إن هذه المشكلة قد أدت إلى طرد طفلة من مدرسة إنجليزية فى الهند ، وأدت إلى طرد أحد الحاخامات من المعبد . فقد أثبت بعض الأحزاب أنه ليس يهودياً بدرجة كافية . وطردت سيدة يهودية من مجلس بلدية الناصرة لأنهم أثبتوا أنها يهودية إلا قليلا !

واستعان مجلس الوزراء الإسرائيلى بعدد كبير من رجال الدين والعلماء والفلاسفة لكى يضعوا تعريفاً كاملاً عن من هو اليهودى ، ووضعت التعريفات ، ولكن الأحزاب السياسية والدينية فى إسرائيل لم تتفق على رأى .

ولاتزال إسرائيل تعانى من التفرقة العنصرية اليهودية ، التى راح ضحيتها ملايين فى أيام هتلر !

ومن المعروف أن عدد اليهود فى العالم كله ١٣ مليونا ، ومن الصعب أن تعرف ما هو لون اليهودى ، ومن الصعب أن تعرف ما هو دين هؤلاء أو ما هو مذهبهم الدينى ، أو من أى الأجناس قد انحدروا ، فهم ليسوا من جنس واحد . لاشك فى ذلك ، فهم زنوج تحولوا إلى الديانة اليهودية . وهناك يهود تحولوا إلى المسيحية فى الظاهر ويهود فى الباطن ، ومن بين اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية مثلا : المونسنيور أسترايشر وهو من الشخصيات الهامة فى سكرتارية الفاتيكان .

ومع بداية القرن التاسع عشر ظهر نوع جديد من اليهود : اليهودى الصهيونى . والآن كم من اليهود صهاينة ، وكم من الصهاينة يهود ؟ . وهل إذا لم يكن اليهودى صهيونياً أى مطالباً بوطن لليهود ، فهل يعتبر يهودياً أو خارجاً عن اليهودية أو معادياً لها ؟

أكثر من ذلك : هل يستطيع يهودى واحد أن يذكر لنا شجرة أنسابة . . إن أكثر اليهود

حظاً يستطيع أن يقتق أثر أجداده إلى مائتى عام فقط . وتلك حـالات نادرة ولكن اليهـود كمجموعة يمكن أن يقال أنهـم أبناء إبراهيم عليه السـلام ، وأنهـم جـاءوا من العصر البرونزى !

والتوراة ترجع باليهـود إلى سـنة ١٩٠٠ ق . م ، أى إلى أيام الإمبراطـورية الرومانية ، وليس هذا مؤكداً من الناحية العلمية ، ولذلك يمكن أن يدخل هذا المعنى ضمن الخرافات الشعبية اليهودية ، فمن المؤكد أن إبراهيم قد هاجر من العراق إلى فلسطين . وأنه فى طريقه استعار الكثير من القصص والخرافات الشعبية السائدة فى ذلك الوقت . وكان ذلك العهد المعروف بينه وبين ربه ، وكان ذلك الوعد من الرب بأن يجعل أولاد إبراهيم يتكاثرون من الشعوب . .

واليهود قد تكاثروا لأنهم تزوجوا من شعوب أخرى . ومن جيرانهم ، ثم إن حياتهم كانت فى التنقل والترحـال لأنهـم كانوا رعاة . ولذلك أطلق عليهـم اسـم عابيرو . . . وحابيرو . . . وهابيرو . . . وعابورا . . . وأطلق عليهم اسم : العبرانيون والعـبريون . . (فى الريف بمصر ماتزال كلمة عابورا تطلق على النعجـة ، لعـل هـذه الكلمة علاقة بالرعى أو الترحال . وفى كل اللغات كلمات من اللغات المجاورة أو اللغـات الأقدم) ومن فلسطين اتجهوا إلى مصر . ومن مصر إلى سيناء إلى فلسطين . .

وكان اليهود يعتقدون أن قوتهم فى صفائهم ـ أى فى أنهم من سلالة واحدة وأنهـم أسرة واحـدة ـ ولكن عندما نزلوا إلى مصر واختلطوا بالمصريين . . وأقاموا فى مصر أكثر من مائتى سنة ، سقطت هذه الحجة . تماما كما تروى التوراة أن شمشون قد انهارت قوته عندما قصت له دليلة شعره ، فكذلك اليهود سقطت حجتهم عندما اختلطوا وامتزجـوا وذابوا فى الشعوب الأخرى

ثم جاء أنبياء اليهود وراحوا يؤكدون لهم إنهم باقون . وإن الله خلقهم لكى يبقوا ضـد طغيان الفرس والرومان . وهؤلاء الأنبياء هم الذين نفخوا فى اليهـود وجعلوهم يؤمنون بأن رسالتهم لكل الشعوب .

وفى أيام الرومان هرب اليهود إلى روما يمشـون فى مواكب القـوة الجـديدة . وكذلك مع قوات الإغريق ، ثم تسـللوا إلى كثير من الدول الأوروبية الأخـرى . وانعـزلوا عن الناس .

ولما ظهرت المسيحية عاداها اليهود أول الأمر.

ولما قويت تسللوا إليها. وفى نفس الوقت كانوا يتمسكون بدينهم هم، خوفا على « ناموس موسى » أى قانون موسى ووصاياه، ثم أختلف اليهود مع المسيحيين. وتولدت الكراهية، وجاء الرومان يعدمون المسيحيين واليهود معاً.. فنى ١٣٢ ميلادية أصدر الرومان قانوناً يحرمون فيه الطهارة التى أحلتها الديانة اليهودية. وكان من نتيجة ذلك إعدام مئات الألوف من اليهود. وتحول هيكل سليمان فى القدس إلى معبد للإله الرومانى جوبتر.

وفى مواجهة « العهد الجديد » فى الديانة المسيحية ألف اليهود « التلمود »، وقد اشترك فى كتابة التلمود ألوف من رجال الدين. وعرضوا فيه الديانة اليهودية وتاريخها وأحكامها مستعينين بالقصص والأمثال والنوادر والخرافات، و « العهد الجديد » فيه إشارات إلى اليهودية، وفى التلمود أشارات وهجوم عنيف على المسيحية.. ولكن الكتابين يرفض كل منهما الآخر تماماً. واليهود يرون أن من يقرأ « العهد الجديد » كافر... والمسيحيون يرون أن « التلمود » دعوة إلى الكفر بالمسيحية.

ولا أحد يستطيع اليوم أن يحدثنا عن الشعب اليهودى فى أى مكان من العالم فى العصور الأولى للمسيحية.. ولا أحد يعرف كم عدده. **وفى العهود الإسلامية نعرف الكثير عنهم. نعرف أنهم عاشوا فى أمان وازدهرت أفكارهم وبرزت أدوارهم فى الحياة الاقتصادية والفكرية**، وعندما أقام الملك شارلمان إمبراطوريته المسيحية، قامت جماعات يهودية تركية بين البحرين الأسود وقزوين لمدة قرنين، وكان لهم نشاط واضح. ثم برز اليهود فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر فى الأندلس. وظهر من بينهم الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون، طبيب صلاح الدين.

ولما جاءت الحروب الصليبية، وارتفع المد المسيحى عرف اليهود أشد أنواع الخوف، وظهرت فى حياتهم « حارات اليهود » وكان على كل يهودى أن يضع علامة فى ملابسه، تمييزاً له عن المسيحية، ومع الأعمال العنيفة، وحرب الثلاثين عاماً فى أوروبا، انكمش اليهود واختفوا فى عزلتهم واحتقار الناس لهم. وأصبح على كل يهودى أن يعد نفسه للهرب فى أى وقت. ولذلك كان اليهود يحملون ثرواتهم على شكل ذهب أو على شكل

سفن . ليسهل الهرب ليلاً أو نهاراً . وأدرك أبناء اليهود أنه لا حياة لهم إلا فى ظل ملك أو أمير . ولذلك ألتف اليهود حول الأمراء والنبلاء فى أوروبا . ولق اليهود فى القرن الثامن عشر ، ما لقيته كل الأقليات الأخرى : البروتستانت فى پولندا ، والكاثوليك فى إنجلترا والسويد .

وأدى هذا الإنزواء والخوف إلى تخلف اليهود ثقافياً . ولم ينطلق اليهود فكرياً وأدبياً إلا عندما عاشوا مع الأغلبية واتصلوا بها وذابوا فيها ـ أى عندما أفلتوا تماماً من سجن التلمود والتوراة !

وبعض المذاهب اليهودية ترفض التطور . ولذلك بق كثير من اليهود الذين عاشوا فى أمريكا وفى روسيا متخلفين تماماً . ويهود آخرون تعبوا من أنهم يهود فانفتحوا على الشعوب التى أقاموا بينها . وأدى ذلك إلى تطورهم . ووضح جداً أن المسيحية انتشرت لأنها ديانة متفتحة ، والإسلام انتشر لأنه دين متفتح . وفى نفس الوقت ظهرت مذاهب يهودية تطلب من الشعب اليهودى أن يتماسك ويتمسك بدينه أكثر وأكثر . وأن يحكم إغلاق الأبواب والنوافذ والحارات فى وجه الرياح الكافرة به !

وهذه الدعوات المحافظة تعيد إلى اليهود مناقشات كثيرة تستغرقهم وتفسد حياتهم : ومن هو اليهودى وما هو الزواج الشرعى ، وعند اليهود هذا شىء مهم جداً : تماماً كما يتساءل الناس هل فلان إنجليزى أو هل هو فرنسى . .

هذا الموقف الغريب من اليهود هو الذى جعل الشعوب الأخرى والديانات الأخرى تقف من اليهود موقفاً غريباً أو معادياً . فاليهود هم الذين خلقوا العداء لهم فى كل مكان ، لأنهم الأقلية التى ترفض الأغلبية . ولأنهم المضطهدون الذين يتعالون على الذين عذبوهم .

وقد ظن اليهود أن سبب كراهية الشعوب كلها لهم : أنهم هم الذين صلبوا المسيح . . وأن هذا هو السبب الوحيد لكراهيتهم . ونسى اليهود أن هناك أسباباً أخرى كثيرة !

ولولا ذلك لساهموا فى تطوير كثير من البلاد التى طردوا منها . .

لقد طردتهم إنجلترا سنة ١٢٩٠

وطردتهم فرنسا سنة ١٣٩٤

وطردتهم النمسا سنة ١٤٢٠
وأسبانيا طردتهم سنة ١٤٩٢
وألمانيا طردتهم سنة ١٥١٩
والإمبراطورة الروسية كاترين الأولى قد طردتهم سنة ١٧٢٧ .
وجاء هتلر بعد ذلك . .

وكان العناد وضيق الأفق هو الذى أتعس الشعب اليهودى ، فقد اختار اليهود الطاعة العمياء لك ما جاء فى التلمود . فالتلمود هو الذى أغناهم ثم هو الذى أفناهم بعد ذلك ، وكان اليهود يرفضون أية محاولة لتحرير الفكر اليهودى ، واليهود اليوم ينظرون بكثير من الخجل إلى أنهم اتهموا موسى بن ميمون بالالحاد . . . وهو الذى ألف باللغة العربية كتاب « دلالة الحائرين » لإنقاذهم . . وهم الذين اتهموا فيلسوفهم الهولندى أسبينوزا بالكفر وطردوه من دينهم سنة ١٦٥٦ .

واليهود ينظرون إلى أوروبا ويجدون أن تخلفهم الشديد هو الذى لم يجعل لهم رساماً واحداً ممتازاً ولا موسيقياً ولا عالماً ولا فيلسوفاً يقف إلى جانب عمالقة الفكر والفن الأوروبى . وبينما كانت أوروبا تباهى العالم بعلمائها الكبار كان اليهود يتحدثون عن سليمان وداود ويوشع وابن كوكب والمكابين (الشواكيش) وخرافات أخرى كثيرة فى دينهم .

إلى جانب ذلك فاليهود نوعان : غربيون أشكنازيم . . وشرقيون : سفرديم . . أو أشكنازيم : ألمان . . وسفرديم : أسبان . . ولاتزال هذه التفرقة معاندة فى العالم كله ، وفى إسرائيل حتى اليوم . فلكل فئة معابدها . ومن المؤكد أن الغربيين هم أبناء أوروبا الوسطى والشرقية : البيض . . والشرقيون هم أبناء البحر الأبيض وبقية الدول الملونة . ومن الغريب أن أصحاب الملايين اليهود فى إنجلترا شرقيون ، ويسخر منهم الغربيون ويقولون عنهم : هؤلاء « السادة » العظام !

واليهود الشرقيون هم ربع الشعب اليهودى فى العالم ، وفى إسرائيل : الحكومات كلها غربية وأصحاب الإمتيازات جميعاً من الألمان والروس والبولنديين والأمريكان . .

وعلى الرغم من أن اليهود يعرفون أن الممتازين منهم أصلهم يهودى ولكنهم مسيحيون ، فإن هذا لا يدفعهم إلى الذوبان فى الشعوب الأخرى ، مثلا : الفيلسوف كارل ماركس

والشاعر جيته والموسيقار مندلسون ودزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا - تحولوا إلى المسيحية !

وقد كان عدد اليهود في أمريكا سنة ١٨٤٠ حوالى خمسة آلاف . أنهم الآن ستة ملايين !

حتى لا ينسى اليهود ما حدث قبل هذا !

أخطر الأحداث فى تاريخ اليهود يوم أنهدم الهيكل أو المعبد فى القدس ، وتناثرت أحجاره ، وأحرقت أخشابه ونهبت القوات البابلية كل ما فيه من ذهب . بعد هذا الحادث تشتت اليهود فى الشرق الأوسط كله . . وأخذت القوات البابلية ألوف اليهود أسرى ورقيقاً يباع فى الأسواق . . ثم أنهدم المعبد بعد ذلك بخمسة قرون أى سنة ٧٠ ميلادية فى عهد الرومان . ونقلت القوات الرومانية أسرى اليهود إلى روما وسحبتهم فى الشوارع . . وتفرق اليهود فى كل أرض . وسميت كل الدنيا بالنسبة لهم « أرض الشتات » أو « الشتات » . .

وهذا هو عنوان الكتاب الذى أصدره فرتر كيلر : « الشتات ـ تاريخ اليهود بعد التوراة » . والمؤلف يستعرض التاريخ اليهودى ، ويتوقف عند الأحداث التى حولت تيارهم وجمعتهم فى أماكن بعيدة . وتركتهم عاكفين على قراءة التلمود وعدم الاجتهاد أو التجديد فى تفسيره . وظل اليهود هكذا أسرى هذا الكتاب المليء بالأحقاد على كل الشعوب ، وبكثير من الخرافات أيضا .

ويختار المؤلف أحداثا كثيرة ذات دلالات عميقة وبعيدة . . مثلا ما حدث فى دمشق سنة ١٨٤٠ . حتى ذلك الوقت كانت فى دمشق ٤٠٠ أسرة يهودية وكلهم من اليهود

الشرقيين وهم جميعاً يعملون فى التجارة وبعض الحرف .. ولا أحد يسمع بهم أو يدرى عنهم شيئاً .

وفجأة فى يوم ٦ فبراير سنة ١٨٤٠ اختفى أحد الرهبان الكاثوليك . غاب ولم يعرف عنه أحد شيئاً . واختفى خادمه أيضاً . الراهب الإيطالى اسمه الأب توما .

وأعلن الرهبان الكاثوليك أن اليهود قد ذبحوا أخاهم الأب توما ، وشربوا دمه . أو صنعوا من هذا الدم خبزا يأكلونه فى أحد الأعياد كما هى عادتهم .. ولكن لسوء حظ الأب توما وخادمه أن وقع الاختيار عليهما هذه المرة . وقد عثر الرهبان على جثة الأب توما وقد قطعت بطريقة خاصة .. وكل شىء يدل فى الجثة على أنها ليست قتلاً ، وإنما هى محاولة غريبة غير مفهومة لإخراج الدم من جسمه بطريقة غير مألوفة .

وكان شريف باشا حاكما على دمشق فقام بتفتيش حارات اليهود . وألقى القبض على سبعة منهم : داود هرارى وموسى أبو لافيه وموسى سالونيكى ويوسف لانيادو وابن داود هرارى واثنان آخران من اليهود الذين جاءوا إلى دمشق أخيراً . واعترف حلاق حارة اليهود بما حدث . وأقر بأن كل الذى جرى إنما هو يتمشى مع ما جاء فى التلمود بضرورة أن تكون فطيرة أحد الأعياد قد عجنت بدم واحد مسيحى أو مسلم . واعترف الحلاق بأنه هو الذى ذبح الراهب . واعترف واحد آخر بأنه هو الذى ذبح الخادم . وطلب إليه شريف باشا أن يشرح للمسلمين والمسيحيين فى دمشق كيف تمت عملية استخلاص الدم من جسد الراهب وخادمه . وقام الحلاق اليهودى وشرح لهم ذلك ..

وبعدها بيوم عثر اليونانيون فى جزيرة رودس على واحد منهم مشنوقاً وظهر أن الوقت كان فى غير صالح اليهود . فقد كان من المفروض ألا يكتفوا بما حدث فى دمشق . ولكن لم يبلغ يهود رودوس أن واحداً قد اغتيل فى دمشق .. ولو عرفوا لاكتفوا بهذه الكمية الكبيرة من الدم .

وكان ذلك سبباً معقولاً لأن يهاجم الناس اليهود فى حاراتهم وفى معابدهم وأن يحرقوا البيت وأن يهدموا المعابد فى دمشق وبيروت وفى أزمير بتركيا .

أما فى روما فقد أقيمت الصلوات على روح الأخ توما . واحتج اليهود فى بلاد أوروبية

كثيرة على ما أصاب شعبهم فاتصل المحامى اليهودى أدولف كريميه (اسمه السابق إسحق موسى) برئيس الوزارة الفرنسية فى ذلك الوقت وطلب إليه أن يحتج لدى السلطات العثمانية. وثار اليهود فى لندن. واحتج وزير خارجية النمسا مترنيخ. وكذلك تظاهر اليهود فى أمريكا.

وتزعم اليهودى الإنجليزى المشهور موسى مونتفيورى وفداً من اليهود الفرنسيين والإنجليز وسافروا جميعاً إلى القاهرة. وفى القاهرة قابل مونتفيورى محمد على باشا والى مصر وسوريا يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٤٠ ولحق به المحامى الفرنسى كريميه والمستشرق المعروف سلومون مونك. وأصدر محمد على قراراً بإطلاق سراح اليهود المعتقلين فى دمشق. وفى يوم ٦ ديسمبر أفرج عنهم شريف باشا.

واحتج اليهود على اعتقال عدد آخر فى تركيا. وقابل اليهود السلطان عبد الحميد الأول. فأفرج السلطان عن اليهود المعتقلين فى جزيرة رودس. وأصدر السلطان عفو عن يهود دمشق وحاول اليهود أن يجعلوا قرار العفو قراراً بالبراءة. ولكن السلطان لم يفعل ذلك. ثم صدر بعد ذلك قرار ببراءتهم يوم ٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠. وأصدر السلطان فرماناً بحرية اليهود فى العبادة.

وعاد الوفد اليهودى من الشرق لتحتفى به كل الهيئات الدينية فى أوروبا وكان هذا الحادث بداية تماسك أوروبى يهودى. وبدأ اليهود الأوروبيون يتجهون إلى اليهود الشرقيين ويحرصون على حياتهم وعلى مستقبلهم. وعلى الرغم من أن حادثة شرب دم المسيحيين أو المسلمين هذه لم تختف من ذاكرة الأديان الأخرى، وعلى الرغم من أن اليهود يطوحون التنصل منها بحذفها من كتبهم، فإن هذا الحادث كان له أثره الأكبر فى التقارب بين اليهود وكراهية المسيحيين والمسلمين للوحشية اليهودية.

حادث آخر: تطوعت فتاة كاثوليكية بالحضانة لطفل يهودى مريض. الطفل اسمه إدجار مورتارا..

وفى يونيو ١٨٥٨ أخذت الطفل وعمدته ليكون مسيحياً. وكان الطفل فى السادسة من عمره. واخفت الطفل لأنها أرادت أن تجعله مسيحياً. وعلم أبواه، ولم يفلح الاثنان فى استرداد الطفل..

وثارت الصحف الأوروبية بتحريض من اليهود على هذا الذى حدث . وتقدم حاخامات اليهود للبابا بيو التاسع . وقامت مظاهرات فى لندن وحاول نابليون الثالث وكذلك الإمبراطور فرنتس يوسف أن يتوسطا عند البابا ولكن هذه الوساطة والاحتجاجات وثورة الصحف لم تثن البابا عن موقفه وفى فبراير سنة ١٨٥٩ ذهب وفد يهودى على أعلى المستويات لمقابلة البابا . استمع إليهم طويلاً ثم قال لهم أنتم الذين أثرتم الدنيا ضد الفاتيكان على هذه الحادثة . استمروا . . وافعلوا ما شئتم .

ثم أستدار وتركهم . . وذهب للقائه السير موسى مونتفيورى . وأطال البابا الاستماع إليه ورد عليه باللاتينية قائلا : نون برسوم - أى لا أستطيع !

وبعد ذلك أصبح إدجار هذا قسيساً وأصبح من كبار المبشرين بالمسيحية !

وعلى أثر هذا كله تألف « الاتحاد الإسرائيلى العالمى » فى باريس فى سنة ١٨٦٠ . وأصبح المحامى كريمييه رئيساً لوزراء فرنسا مرتين ، ورئيساً لهذا الاتحاد أيضاً فى سنة ١٨٧٠ . وكان هدف الاتحاد إنقاذ اليهود من البلاد التى يعانون فيها الهوان والاحتقار . كما أن الاتحاد هذا قد أنشأ المدارس فى أوروبا . وأنشىء « الاتحاد الإنجليزى اليهودى » سنة ١٨٧١ « والتحالف الإسرائيلى » فى النمسا سنة ١٨٧٣ و « العون اليهودى الألمانى » سنة ١٩٠١ .

وبدأت هذه الاتحادات تنشىء المدارس للبنين والبنات والمدارس الداخلية والورش ، وكان الحاخامات يعترضون على هذا التجديد الذى لم يرد عنه نص فى التوراة أو التلمود .

وبدأت الدعاية الشاملة من يهود الغرب ليهود الشرق . .

ومن الحوادث الهامة أيضاً أنه فى سبتمبر سنة ١٦٥٤ حملت سفينة هولندية عدداً من اليهود المهاجرين من البرازيل إلى أمريكا . . إلى ميناء أمستردام الجديد ، الذى اسماه الإنجليز يورك الجديدة أو نيويورك . وكان هؤلاء اليهود قد قرروا الحياة فى الدنيا الجديدة . ووقفت هذه السفينة خارج الميناء ، وكان المحيط هائجاً . وبدأ اليهود ينزلون فى قوارب صغيرة . وقد حملوا معهم كل ثرواتهم فى أشكال غريبة . وكانت التعاسة على وجوههم .

وعندما سيطر الإنجليز على هذه الأرض الجديدة عاملوا اليهود معاملة طيبة . ورأوا أن أمريكا هى أيضاً كل سكانها من المهاجرين . . وإنها أرض الشتات . . أو المنفى العالمى . . فاليهود قد طردوا من مصر . ورأى الإنجليز أن بنى إسرائيل لهم حق الحياة كغيرهم من الشعوب الأخرى . وعندما أنشئت جامعة هارفارد سنة ١٦٣٦ كانت اللغة العبرية لغة أساسية مثل اللاتينية واليونانية . بل إن بعض اليهود تقدم بمشروع أن تكون اللغة العبرية هى لغة الولاية التى تجمع فيها اليهود . وبعض اليهود طالب بضرورة تطبيق قانون موسى على اليهود وغيرهم تصور أن هؤلاء المهاجرين اليهود لم يمض عليهم سوى سنوات قليلة !

وكانت أول مستعمرة يهودية قد أنشئت سنة ١٦٢١ . وبدأ اليهود يتسللون إلى الولايات الأخرى . . حتى كانوا يسيطرون على القارة فى أكثر من ١٣ ولاية أمريكية .

أما تجارة اليهود فى ذلك الوقت فهى : الدخان والسجائر والغلال وأهم من ذلك كانوا يعملون فى تجارة الرقيق من أفريقيا إلى أمريكا . فقد كانت حاجة أمريكا إلى الأيدى العاملة ملحة فالأرض واسعة والناس قليلون واليهود لا يعملون فى الأرض أو فى الزراعة . واليهود أدخلوا صناعة الشموع وصناعة الشمع عموما إلى أمريكا .

ولما اشتعلت حرب التحرير وقف اليهود على جانبى القتال . مع هذا الفريق ومع الفريق الآخر ، يبيعون هنا وهناك ويكسبون فى الحالتين . . وكان من المناظر المألوفة أن تجد اليهودى راكباً حصانه يبيع السجائر والشاى والسكر بين القوات المتحاربة فإذا أمسكه أحد الفريقين قال : أنا يهودى غلبان أبيع لمن يشترى !

وكان أغلبية اليهود فى أمريكا فى القرن السابع عشر من أسبانيا والبرتغال ولكن بعد سنة ١٧٠٠ أخذ اليهود الغربيون يتكاثرون على أمريكا ، كلهم من ألمانيا ووسط أوروبا . وفى سنة ١٨٢٠ كان فى أمريكا كلها عشرة آلاف يهودى . وفى سنة ١٨٨٠ كان عدد اليهود فى أمريكا ربع مليون . الآن فى أمريكا وحدها ستة ملايين نصفهم فى نيويورك وحدها

ولم يتوقف اليهود عن محاولة شراء أرض لتكون لهم دولة أو ولاية مستقلة تماماً عن كل الولايات . لا يسكنها إلا اليهود ولا يصلى بها إلا اليهود . وفى سنة ١٨٢٥ جاء صحفى يهودى اسمه موردخاى نوح واشترى جزيرة فى نهر نياجرا . وأطلق على هذه الجزيرة اسم

أرارات لتكون مستعمرة يهودية مائة فى المائة . وأرارات هو اسم الجبل الذى يقال أن سفينة نوح قد رست عليه عندما انحسر الطوفان . وهذا الجبل يقع الآن على حدود أرمينيا وتركيا . ولكن هذا المشروع لم ينجح . فقد خاف اليهود أن يعيشوا وحدهم وأدركوا أن الحياة وحدهم لا تعود عليهم بالمكسب أو الإنتشار لأنه لابد من الأغلبية التى تشترى منهم أو التى تقترض منهم .

واتجه اليهود بعد ذلك إلى جزيرة مانهاتن التى تقام عليها نيويورك .. وبعد ذلك اتجهوا إلى غرب أمريكا جرياً وراء مناجم الذهب فى كاليفورنيا .

وفى سنة ١٨٧١ توقفت الهجرة من ألمانيا إلى أمريكا ، فقد صدرت هناك قوانين تساوى بين اليهود وغيرهم . وبعد ذلك فى سنة ١٨٨١ جاءت السفن تحمل اليهود من روسيا وبولندا ، هرباً من التعذيب والإعدام لهم فى كل مكان .

ومن الغريب أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا ذات الثراء الهائل وحيث ينعمون بالمساواة والحرية المطلقة فى البيع والشراء ، فإن بعض اليهود لا يطيق أن ينتشر بين الناس وإنما يريد أن يكون فى مجتمع يهودى خالص .. وأن تكون له دولة فى داخل هذه البلاد .. ولم يكن اليهود فى حاجة إلى حماية من أحد . فلا خوف عليهم من أمريكا . ولكنهم لا يطيقون الديانات الأخرى ، والشعوب الأخرى مهما كسبوا من هذه الشعوب .. فهم يؤمنون بأنهم أفضل - ولا يزال هذا رأى الكثيرين من اليهود حتى بعد أن كانت لهم إسرائيل ، فهم يريدونها يهودية مائة فى المائة !

ونيويورك هى المدينة التى يسيطر عليها اليهود . وفى نيويورك صحف عبرية ومجلات بلغة اليديش - أى اللغة الخليط من العبرية والآرامية والألمانية - تلى مدينة نيويورك مدينة شيكاغو ففيها أكبر تجمع يهودى فى العالم ..

وعندما طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ - السنة التى اكتشف فيها كولمبوس أمريكا - هاجر اليهود إلى أمريكا وظلوا وراء القوة التى طردت الأسبان من أمريكا !

وفى ٣١ يناير سنة ١٩٣٣ أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا . واتجه إلى الشباب يشعل فيه نار العداء لكل من ليس جرمانياً آرياً . اليهود ليسوا آريين . فأصدر هتلر قراراً بمقاطعة اليهود فى أول أبريل سنة ١٩٣٣ باعتبارهم لصوصاً وجواسيس على ألمانيا . وأخذ موجة

من الجنس الجرمانى . ويوم ٧ أبريل صدر قرار يقضى بفصل كل من ليس آرياً من عمله ـ أياً كان هذا العمل ـ فخرج أساتذة ومهندسون وأطباء وغيرهم بمئات الألوف .

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ صدر القانون الذى يقضى بضرورة الاحتفاظ بنقاء الدم الآرى . وكانت هذه القرارات قد صدرت فى مدينة نورمبرج التى اشتهرت بعدائها لليهود . ولذلك عندما انهزمت ألمانيا أقيمت محاكم النازيين فى نفس المدينة !

وأصبح اليهود مواطنين من الدرجة الثانية . أو ليس من المرغوب أن يكونوا مواطنين فهاجروا من ألمانيا إلى أمريكا وحوالى خمسين ألفا ذهبوا إلى فلسطين سنة ١٩٣٧ .

وفى إيطاليا صدرت قرارات تؤيد هتلر . وخرج اليهود من إيطاليا أيضاً .

وتحمس طفل يهودى وثار على هذا الإرهاب والتعذيب فأطلق الرصاص على السفير الألمانى فى فرنسا فأصابه . واشتدت الحملات الألمانية على اليهود . . وكان على كل يهودى أن يضع علامة صفراء فى ملابسه وأن يضع نجمة داود . وكان من المناظر الواضحة فى ألمانيا سنة ١٩٤١ أن تجد أناساً قد أحنوا رءوسهم ويمشون إلى جوار الحائط . إنهم اليهود الألمان .

وفى مارس ١٩٤١ صدر قرار بالقضاء البيولوجى على اليهود . وكان هذا القرار له اسم آخر هو « الحل الأخير » . . وانتقل اليهود إلى غرف الغاز بمئات الألوف ـ ولكنهم يقولون بالملايين .

وتوالت الأحداث الحاسمة فى التاريخ اليهودى : قامت دولة إسرائيل وانهزم العرب سنة ١٩٦٧ ـ وظهرت ألوف الكتب تتحدث عن مجد إسرائيل وعبقرية كل من يمسك حجراً فى الأرض المقدسة ويلقى به عربياً مسلحاً أو غير مسلح .

ثم كان يوم ٦ أكتوبر . . ولم تجف دموع اليهود بسبب هذا اليوم . . ولن تجف دموعهم إلا لكى تسيل دماؤهم من جديد ـ آمين !

تغيير النظرة ؟
لا تغيير العين ؟ نعم..

من أشـياء عادية ، تولد كل الأشـياء غير العـادية .. من يضربك بالكرة على رأسك ، فهى فرصة لكى يكون صديقك فى الدين ..

الرياضـة حفلة علنية لتعيش مع الناس ، فإذا عدت إلى البيت فأنت يهـودى ، أو يجب ألا تنسى ذلك !

مع المسـيحيين العـب واعمل واكسـب ، ولكن مع أبناء دينك اجلس وفكر على مهلك ولا تنس ما فعلة آباؤك وأجدادك من قبل .

هذه العبارات تجيء مثل لافتات مضيئة على جدران ملعب لكرة القدم فى إحـدى الولايات الأمريكية . اللاعبون يهـود ومؤلف هذه الرواية يهـودى اسمه « حـاييم يوتوك » وقد باعت روايته هذه أكثر من مليون نسـخة . اسم الرواية « الشـعب المختار » . والرواية بصـورة غير تقليدية . فإحـدى المدارس تلعـب كرة القـدم مع مدرسة أخرى . المدربون كلهم من الأمريكان . واللاعبون والجمهور أمريكان أيضاً . ولكن من طراز مختلف . إنهم يهود ملامحهم تدل على ذلك . بل إن من بينهم عدداً من اللاعبين قد تدلت خصلات من الشعر على جانبى الوجه . تماماً كما يفعـل المتعصـبون

اليهود. ثم إنهم يضعون الطاقية السوداء على الرأس أثناء اللعب. ويعلقون محفظة من الجلد. هذه المحفظة بها قطع من الورق مكتوب عليها الوصايا العشر. وملابسهم لها كرمشة غريبة عند أطرافها. وقبل بداية اللعب بلحظات وقف كل واحد منهم يقرأ فى سره بعض المزامير..

ولكن لماذا يهتم هؤلاء الأطفال والشبان بالرياضة. إنهم لا يعرفون بالضبط. لأن الرياضة قد اختارتها لهم المدرسة أو الحاخامات فى المدرسة. ولكن لماذا كرة القدم بالذات؟ لأن جمهورها أكبر. ولأن الذى يتفوق فيها يكسب الملايين من الناس ومن الدولارات ويرتفع بنو دينه.

يقول المؤلف إن المهاجرين اليهود يحرصون على كرة القدم لأنهم يريدون أن يذوبوا فى الدنيا الجديدة. وفى الشعب الجديد. وأن يرتدوا ملابسهم. ويستخدموا عباراتهم وعاداتهم أى أنهم يريدون أن يحتموا فى الأغلبية. إن المجتمع الأمريكى لا يخيف اليهود. ولكن اليهود يريدون أن يخفوا خوفهم وفزعهم.. إحساسهم بأنهم يهود.. إنهم أناس من نوع آخر، أو من نوع خاص!

وشىء آخر - يقول المؤلف - هو الذى يجعل اليهود يهربون من شعورهم بالأقلية: إنهم لا يريدون أن يفشلوا. فالإنسان عندما يشعر بأنه أقلية.. بأنه وحده.. بأنه غريب.. بأنه مطرود منبوذ، هذه الإحساسات كلها تعطيه عذراً قوياً لكى يفشل. فإذا فشل قال لنفسه: ألست وحدى؟ أليس الناس لا يريدوننى؟ كيف أنجح دون مساعدة من أحد.. ولذلك يهرب اليهود من هذا الشعور بأنهم بعيدون مبعدون. فالنجاح هو سلاح الأقلية. إما أن تنجح أو تموت.

وفى أمريكا لابد أن ينجح أى إنسان وهناك كتالوجات للنجاح والفشل. ولا يوجد عمل من الأعمال فى أمريكا ليست له مواصفات النجاح والفشل. وإذا كان الأمريكى المسيحى لابد أن ينجح فإن الأمريكى اليهودى لابد أن ينجح جداً!

وأول ما يفعله اليهودى المهاجر إلى أمريكا هو تغيير اسمه.. فإذا كان بولندياً جعله إنجليزياً. وإذا كان عبرياً جعله أمريكياً.. وبعد ذلك يغير من عاداته فى الأكل والشرب واللعب والتجارة.. ثم يذوب بين الناس اسماً وجسماً. وقد يذهب إلى الزواج من أمريكية يهودية.. أو من أمريكية مسيحية..

ويحدث أيضا أن يجد اليهودى الأمريكى نفسه أمام خطر يومى وخوف مستمر. ولذلك فهو يؤكد نفسه ووجوده بصورة عنيفة ولذلك ارتكب اليهود فى أمريكا جرائم كثيرة. هذه الجرائم لها عدة معان: أولا أن المجرم يحاول أن يقول أنا هنا ولا يهمنى أحد.. وثانياً يحاول أن يعتدى على الأغلبية.. أو ينتقم منها.. لا لأن الأغلبية الأمريكية فعلت به شيئاً. ولكن لأن الأغلبية الأوروبية هى التى عذبته وطردته.. فهو ضد الأغلبية وخائف منها فى كل مكان وفى كل وقت..

ولقد تعلم اليهودى الأمريكى أن الشعب الأمريكى لا يحترم إلا الصوت العالى.. إلا الدوى والإنفجار والفضيحة. واتجه اليهود إلى امتلاك كل وسائل الإعلام: الإذاعة والتليفزيون والصحف والسينما والمسارح..

وعندما ينسحب اليهود الصغار والكبار من الحياة العامة. فهم يهود. التلمود فى أيديهم. والتلمود ممل. وفيه تكرار. وفيه عذاب وتعذيب. ويتساءل الصغار: كيف نبحث عن الراحة فى كتاب ملىء بالعذاب. من أين يأتى الأمان فى كتاب كل قصصه ونوادره عن أناس لم يجدوا الأمان من أحد أو مع أحد؟

يرى المؤلف أن هذه تساؤلات ضرورية. ومن واجب الآباء أن يجدوا لها شرحاً مقنعاً.

وفى هذه الرواية نجد أحد الآباء مهموماً بابنه الصغير. ولكنه فى نفس الوقت مفتون به. ينصحه بألا يختلف مع أبناء دينه لأسباب تافهة. وإن كانت هذه الأسباب التافهة هى الأم الحقيقية لكل الأمور الهامة فى هذه الدنيا.. فهذا الشاب الذى ضربه أثناء اللعب، ليس نزيلا كما تصوره، إنه قرة على شجرة دينية عريقة. وأنه من الواجب أن يكون صديقه حتى الموت. وأن هذه الإصابة أثناء اللعب ليست إلا إشارة إلى ضرورة أن يكون شقيقه الروحى.. فاليهود جميعاً إخوة فى العذاب.

ويطلب إلى ابنه أن يعد له قدحا من الشاى وأن يجلس إليه ليروى له قصة العذاب والهوان فى بولندا - وكلهم من البولنديين المهاجرين. يقول له إن بولندا فى القرن الثالث عشر كانت تشجع اليهود على الحياة فيها. بينما كانت أوروبا كلها تطرد اليهود وتصادر أملاكهم وتجردهم من ملابسهم أثناء الليل، وتسترق أطفالهم وتوزعهم على بيوت الأغنياء. ولكن لماذا كانت بولندا حريصة على اليهود؟ كانت بولندا مفلسة. وكانت

الأرستقراطية تتضور جوعاً . وتعيش على ما تمتصه من الفقراء والفلاحين وهذه الأرستقراطية كانت فى حاجة إلى من يجمع لها المال ويدير لها الأعمال . فاستدعت اليهود بالألوف أول الأمر . . وجاءوا بمئات الألوف بعد ذلك . . وقاموا بتحصيل الضرائب . وأحس اليهود أن پولندا هى جنة اليهود وأنها أرض الميعاد . وأن يهود العالم كلهم يجب أن يفدوا إليها . وأن يعيشوا بها حتى يوم القيامة . وانتشر شعار يقول : پولندا حتى الموت !

ويلتفت الأب لابنه ويتساءل . فما الذى كسبه اليهود بعد ذلك لا شيء سوى كراهية الشعب البولندى صحيح أنهم أفلحوا فى إقامة جمعيات دينية . . وجمعيات أخرى لدراسة التلمود . وساهموا فى بناء الجامعات والمعاهد العليا . . ولكن الشعب نفسه كان يكره الأيدى التى تمتد إلى جيبه تسرق أمواله وتعطيها للنبلاء . .

وهذه الكراهية تجمعت حتى أصبحت إعصاراً عنيفاً أطاح بمئات الألوف من اليهود فقد كانت هناك جماعة من القوزاق الأرثوذكس على حدود أوكرانيا . . هذه الجماعة اضطهدها النبلاء الكاثوليك . ففرضوا عليها ضرائب ثقيلة وأقفلوا أبواب الكنائس وأعطوا مفاتيحها لليهود . فلا يدخل واحد من الأرثوذكس كنيسة لفرح أو لمأتم إلا إذا دفع الاتاوة لليهود ، لكى يسلموها للسادة الكاثوليك . .

وفى سنة ١٦٤٨ جاء رجل من القوزاق اسمه شملينكى وثار على پولندا . وظلت هذه الثورة مشتعلة أكثر من عشر سنوات . كان وقودها كل الجمعيات والهيئات والجاليات اليهودية . . فمات مئات الألوف . . « وتبعثرت الأغنام فى كل أرض . . وأحس اليهود أنهم ألوف الكرات تضربها أقدام شيطانية لا ترحم » . .

ويطلب الأب من ابنه أن يعد له كوباً من الشاى لأن ريقه قد جف . . ويسأل ابنه إن كان قد تململ من هذا الكلام غير الرياضى . ويقول الابن : يا أبى أريد أن اسمع المزيد .

ويباركه الأب . ويدعو له . ويكمل الأب حديثه قائلا : فما الذى يقوله اليهود فى صلواتهم ؟ هل يشكرون الله على ما أصابهم ؟ لا يشكرونه طبعاً ولكن فى نفس الوقت لا ينكرون وجوده . ويحاول رجال الدين أن ينقذوا الشعب اليهودى من اليأس . ويؤكدون لهم أن هذه محنة سوف تزول . ويذهب الناس إلى المعابد ليسمعوا أن المسيح المنتظر

سوف يظهر. وأن من علامات ظهوره أن تقع بالشعب اليهودى كارثة دامية. وهذه هى الكارثة. إذن لابد أن يظهر المسيح. ويتطلع اليهود إلى المعجزة.. وينادون بها. ويتواصون إذا هى ظهرت..

وفى هذه الأثناء ظهر رجل يهودى يقول إنه المسيح المنتظر: اسمه شباتاى زفى وتبعه نصف يهود العالم. وراحوا يصلون له ومعه ووراءه ويبكون ويقيمون حفلات الندم على كل ما كان والأمل فى كل ما سيكون. وبعد سنوات اكتشف اليهود أن هذا الرجل نصاب. وإذا كانت مذبحة بولندا كارثة بشرية، فإن هذا النصاب كارثة روحية.

يقول الأب: والذى حدث فى ذلك الوقت تكرر كثيراً بعد ذلك وبأشكال مختلفة وفى أماكن متعددة وازداد عذاب اليهود. وشعورهم بالهوان - أى شعورهم بأنهم مغفلون وأنه يمكن الاستخفاف بهم وإسالة دموعهم على أنفسهم فى أى وقت وبأية كمية!

ويشير الأب إلى أنه حدث فى القرن الثامن عشر أن غرق اليهود فى مناقشات غريبة عجيبة. عقيمة. فقد أحس اليهود أن الدنيا امتلأت بالعفاريت والشياطين. وأن هذه الكائنات العجيبة قد تسلطت عليهم تعذبهم. وتطردهم من النوم إلى اليقظة وتشردهم من اليقظة إلى الأرق إلى الجنون. وظهر بين اليهود أناس يعلنون أنهم قادرون على طرد هذه الشياطين وتسخيرها مستخدمين «الكلمة». وأطلقوا على أنفسهم سادة الكلمة «بعل شم».. وظهر السحر الأسود وظهرت حفلات الموسيقى المدوية.. وظهرت الشموع.. واتجه اليهود إلى العالم الآخر هرباً من هذا العالم ويأساً منه.. وبعبارة واحدة يمكن أن يقال إن الشعب اليهودى قد انحدر تماماً فى القرن الثامن عشر.

وفى نفس الوقت الذى ينحدر فيه الشعب اليهودى.. وتظهر فيه الخرافات.. ظهر فى سنة ١٧٠٠ رجل اسمه إسرائيل. هذا الرجل لم يدرس فى مدرسة. لم يقرأ كتاباً. وإنما اتجه إلى الغابات والحقول والأشجار والأزهار ورأى فيها المعبد الحقيق ورأى فيها الصحة والجمال وبدأ يسخر من الدين اليهودى. وأعلن أنه هو الرجل «المؤمن» وأن هكذا يكون الإيمان. ويكون الخلاص لا بالكتاب ولا بالمعبد، ولا بالتوراة ولا بالتلمود.. ولكن بالنظر إلى الناس والأشياء.. وتبعه أناس كثيرون.. وهم جميعاً يقرأون فى كتب «القبالة» - أى الكتب الصوفية اليهودية القديمة.. وتزوج هذا الرجل سراً ومات سراً.

هذا الرجل هو الذى دعا إلى مذهب « الحاسدية » ومن أتباع هذا المذهب ذلك الشاب الذى أمسك كرة القدم وأصاب زميلا له فى رأسه .. ففتح رأسه .. وفتح هذه المناقشات الضرورية لكل يهودى حتى لا ينسى من هو أبوه وما هى كارثة أجداده فى أوروبا . ولماذا كل يهودى أمريكى هو أهم من أى يهودى فى أى مكان آخر .. وأنه لولا يهود أمريكا ما كان اليهود فى أى مكان فى العالم ، ولا كانت إسرائيل!

ويقول لابنه : هل تذكر ما حدث فى سنة ١٩٤٢ .. لقد وقف إيدن يوم ١٧ ديسمبر وأعلن للعالم كله خطة هتلر فى القضاء على اليهود . فهل حرك إيدن أكثر من شفتيه وحاجبيه ؟ لم يفعل أكثر من ذلك . حتى أمريكا أقفلت بابها فى وجه اليهود . وأحرق هتلر الملايين . وما الذى أريد أن أقوله لك وأنت تلعب ؟

قال له فى هذه الرواية من أولها لآخرها :إذا لم يظهر لليهود مسيح ، يجب أن يعمل اليهود على أن يظهر . على أن يظهروه .. وإذا أنتظر اليهود طويلاً ، فلن يدركهم . إذن لابد أن يظهر المسيح أو أكثر فى أمريكا . فيهود أمريكا هم المسيح لكل يهود العالم ..

ولا يكفى لإنقاذ اليهود من العالم كله أن يلتفت اليهود الأمريكان إلى غيرهم من اليهود .. اللفتة وحدها لا تكفى .. النظرة الفاحصة لا تكفى ولا تشبع ولا تنقذ .. ولكن يجب أن يغير يهود أمريكا عيونهم . وأن تكون عيونهم مصنوعة من نسيج تاريخهم وكتبهم المقدسة .. فالدين وحده هو الذى سوف ينقذ اليهود وأنقذهم . وأكبر خطر على اليهود ، أن الجيل الجديد لا دين له أو يهدد بذلك !

وقفة موضوعية مع العدو!

أحد مزامير التوراة يقول : طوفوا بصهيون ودوروا حولها .. عدوا أبراجها .. ضعوا قلوبكم على متاريسها .. تأملوا قصورها .. وتحدثوا عن أمجادها لأجيال أخرى بعدكم .. والله يهدينا إلى الأبد .. !

ومزمور آخر يقول : ليس لى جناح كالحمامة فأطير وأستريح .. وأبعد هارباً وأبيت آمناً فى الصحراء ..

وفى كتاب التلمود : سأل أحد اليهود رجلا من كبار رجال الدين : ما هى الراحة يا أيها المعلم ؟

فأجابه : أن يهدأ كل شىء حولى وتحتى وفوقى وفى نفسى .. وألا أجدنى مضطرا إلى أن أسأل أحداً هذا السؤال . فإذا أجابنى عليه تسببت هذه الإجابة . لأن الآمن لا يسأل . والآمن لا ينتظر جواباً من أحد . فالذى يجده فى نفسه يغنيه عن كل سؤال !

ولكن اليهود فى كل تاريخهم لم يعرفوا الهدوء ولا الأمن ولا الأمان .. إنهم ضائعون يريدون أن يهتدوا . مطرودون يريدون أن يستقروا فى أى أرض .. فلما خطفوا الأرض لم

يبدأوا بعد . . بل إنهم فى داخل إسرائيل يحاربون بعضهم البعض وكأنهم مازالوا أقلية منبوذة مسحوقة تحت أقدام شعوب أخرى مسيحية . . **ولذلك يفكر الكثيرون فى ترك إسرائيل والفرار منها إلى أى أرض أخرى لأنها أحسن وأرحم . . ولكن فئة أخرى من اليهود يقاومون الهرب من إسرائيل . . وفئة ثالثة ترى أن قيام إسرائيل كفر . . وأن التوراة لم تطلب إلى أحد أن يكون له وطن . .** وإنما طالبتهم بأن ينتظروا حيث هم حتى تنفتح عليهم السماء ويهبط من يخلصهم . . وليس من حق اليهود أن يكرهوا السماء على أن تنفتح . . ولا أن يفتعلوا الخلاص من الظلم الواقع عليهم فى كل دولة وفى كل عصر .

وفى إسرائيل أحزاب وأحزان من كل لون وكل نوع وكل حجم . وما من رأى يجاهر به إنسان فى إسرائيل إلا يجد من يصدقه ويلتف حوله ويدعو له . . ولذلك تعددت الأحزاب فى إسرائيل . . وتعددت مخاوفهم . . هناك من يقول : لا حرب . . كفى . . وهناك من يقول : بل لابد من أن نحارب العرب حتى لو هلك العالم كله من أجلنا . .

إن يهود إسرائيل لا يعرفون التفاهم معاً . . ولذلك فهم يتفاهمون فى صمت . . فى إكراه . . إن القيادة العسكرية أرهبتهم بالعرب ومن العرب وحشدتهم لكى يدافعوا عن حياتهم . . ففى إسرائيل نوعيات يهودية من سبعين شعباً . ولهؤلاء صحف ومجلات بكل هذه اللغات . . وتحاول الحكومة بالعنف والتهديد أن تصبهم فى قالب لغوى واحد . بعد أن أشعلت عليهم جميعاً نار التعصب الدينى . فهم جميعاً متعصبون . ومتمسكون بكل خرافات التوراة . وجنون العظمة اليهودية .

* * *

إن عقدة اليهود الكبرى أنهم عاشوا فى « حوارى » المدن . والحوارى طرقات مظلمة مغلقة لا يدخلها ولا يعيش فيها غيرهم . وتحت هذه الحوارى أقاموا مصانعهم وبنوكهم ومعابدهم . . وهذه الحوارى هى مخابىء لوقايتهم من أعين الأغلبية وقوة الأغلبية . ولذلك فاليهود لا يريدون أن يعيشوا فى الحوارى . ولا أن يعودوا إليها . ولكنهم عندما اغتصبوا أرض فلسطين كانت إسرائيل حارة ضخمة فى الأرض العربية . . فأحاط العرب بها من كل مكان يسدون فى وجوههم الطريق إلى البحر والبر والأسواق . . بل إن معظم المهندسين الذين أقاموا البيوت فى إسرائيل كانوا يجعلونها مليئة بالفتحات . . النوافذ

كبيرة والأبواب كبيرة . . مع أن هذه المنطقة من العالم مليئة بالضوء ، وليست مثل بيوت شمال أوروبا فى حاجة إلى فتحات كبيرة يدخل منها الضوء . إن بيوت الشرق فى حاجة إلى نوافذ تحجب الضوء والشمس . . ولكن ذلك الإحساس القديم بالظلام فى حارات اليهود ، عميق فى نفوسهم . .

بل إن إسرائيل نفسها ليست لها خريطة رسمية . . إن حدودها مفتوحة ، لم تحدد بعد . . بل هم لا يريدونها محدودة . لأن أطماعهم لم تقف عند أية حدود بعد . . إنهم يريدون أن يحتالوا وأن يساوموا وأن يسرقوا ، وليس صحيحاً أنهم يريدون سلاماً أو تعايشاً . . إنهم لم يعرفوا السلام ولم يعايشوا أحداً فى أى عصر من العصور . .

وعلى الرغم من أن اليهود قد تعذبوا ألوف السنين من كل الأديان الشرقية والمذاهب الغربية ، فإنهم لم يعرفوا التسامح الدينى فى إسرائيل . . فهناك رجال دين فى غاية التعصب . . إن فى إسرائيل يهوداً يضربون الناس بالطوب يوم السبت . . لأنهم يتمسكون بضرورة الامتناع عن العمل يوم السبت . . ويطالبون كل الشركات الملاحية وشركات الطيران أن تتوقف عن العمل فى هذا اليوم . . ويطالبون بتحريم تربية الخنزير وبيعه وأكله . . يطالبون الجيش بأن يأكل « الطعام الحلال » ـ الكوشير ـ الذى تم طهيه وإعداده كما جاء فى التلمود ، وإلا كان الخراب نهاية إسرائيل . .

وعلى الرغم من أن اليهود قد شربوا المر أحجاماً وألواناً من كل البلاد بسبب أشكالهم ولون شعرهم وطول أنوفهم وتقوس ظهورهم ، فإنهم فى إسرائيل يصبحون وحوشاً ضارية مع اليهود الملونين . . فالطبقة الحاكمة فى إسرائيل من الروس والبولنديين والألمان ، والأغلبية المحكومة من أبناء غرب أوروبا والبحر الأبيض . وأحط أنواع اليهود : الصفر والسمر والهنود واليمنيين .

بل أن كتباً قد صدرت فى إسرائيل تسخر من يهود اليمن . . فقد أصدرت الأمم المتحدة كتاباً ـ بموافقة إسرائيل طبعاً ـ يتحدث عن الجهود التى أرهقت إسرائيل من أجل تعليم يهود اليمن . فالكتاب يقول : إن أبناء اليمن عندما نقلوهم إلى إسرائيل وأسكنوهم بيوتاً . كانوا ينامون تحت السرير ، وليس فوقه . . وأنهم عندما وزعوا عليهم الشوك والسكاكين ، وضعوها فى أحزمتهم ولم يستخدموها فى تناول الطعام . . وعندما وزعوا عليهم بعض الأغنام والأبقار للعناية بها ذبحوها وأكلوها . .

بل إن الكاتب اليهودى يورى مؤلف رواية « الخروج » قد وصف ترحيل يهود اليمن إلى إسرائيل بأنه استحال عليهم اقناع اليهود بركوب الطائرة .. فقد خرج اليمنيون وناموا تحت الطائرة ورفض حاخامات اليمن ركوب الطائرة . لأن الطائرة لم يرد ذكرها لا فى التوراة ولا فى التلمود . ولكن استطاع يهودى روسى أن يجد لهم آية فى التوراة تحتم ضرورة ركوب الطائرة . . وكانت الآية : وجاءوا على أجنحة النسور .

وأقتنع يهود اليمن بأن الطائرة هى النسر الذى يجب أن يركبوه . ثم عدلوا عن ركوب الطائرة فقد تصادف ذلك أحد أيام السبت . والسبت إجازة مقدسة .. وظلوا تحت الطائرة حتى يوم الأحد . ثم ركبوها . وفوجئت المضيفة بأن اليهود اليمنيين حملوا معهم وقوداً للتدفئة . وأنهم أشعلوا الوقود فى قلب الطائرة . وبسرعة تم إطفاء الأخشاب التى أوقدوها . وعندما هبطت الطائرة فى مطار اللد . نزل اليهود يقبلون الأرض . ثم يقفزون إلى الطائرة يريدون العودة إلى اليمن !

وعلى الرغم من أن يهود اليمن أقرب حالاً إلى يهود التوراة على أيام سليمان وداود . فإن الحكومة ترى أن هؤلاء اليهود أقل قيمة . وأتفه قدراً . وأنهم لا يرقون إلى مستوى يهود روسيا وبولندا ورومانيا .. ولذلك فكل الأعمال المنحطة يجب أن تكون من نصيب يهود اليمن والعراق .

بل إن هناك فئة يهودية معذبة إلى أقصى درجة وهم يهود الهند .. فهؤلاء اليهود طراز خاص عجيب من اليهود . ولكن الدولة لا ترى أنهم جديرون بهذا اللقب أو بهذه التسمية .. ولذلك جردتهم من كثير من حقوق المواطن اليهودى ..

أما اليهود الزنوج فهم فى حالة ثورة مستمرة . ويرون أن أكبر خدعة فى القرن العشرين هى إسرائيل . وأن العالم كله يجب أن يعرف هذه الأكذوبة . أو هذا الجنون الدينى .. ويحاول هؤلاء الزنوج أن يؤكدوا للعالم أنه ليس صحيحاً أن اليهود شعب الله المختار . وفى منشور لزنوج إسرائيل يقولون : أين هو الشعب المختار ؟

ما هى ملامحه ؟ ما هو لونه ؟ ما هى لغته ؟ ما هو مذهبه الدينى .. إنه كل الألوان . وكل المذاهب وكل أنواع الخروج على كل دين وكل اجتهاد دينى .. فلا اليهود شعب .. ولا أحد قد اختارهم !

ولا هم دعاة سلام ولا هم دعاة تسامح . . إن فيهم كل عيوب الشعوب الأخرى : فهم متعصبون دينياً ، وهم أشد الناس تمييزاً لعناصر الناس . وأكثرهم تعطشاً لدماء الشعوب الأخرى ولدمائهم ، وربما كان الشيء الصحيح في التوراة أن الرب قد لعنهم في كل مناسبة !

* * *

وفي قصة لكاتب رنجلي يهودى اسمه إيلى جنزبرج أن زوجته ولدت توأمين أسماهما : محمد وعيسى ، ورفض موظف السجلات أن يكتب اسم الولدين . واحتج الأب بأنه حر يطلق على أولاده ما يشاء من الأسماء . ولما سأل الأب عن سر هذا الاصرار وسر اختيار هذين الاسمين قال : إنما أردت أن أبعث قصة قديمة . . وهى اضطهاد اليهود للمسيحيين والمسلمين معاً . . ولما قيل له : ولكن اليهود لم يفعلوا ذلك . أجاب بأنهم لم يفعلوا ذلك لأن التاريخ لم يعطيهم هذه الفرصة . وأنا أعطى لإسرائيل كلها هذه الفرصة النادرة .

ورفض موظف السجلات أن يكتب هذين الأسمين ، وقال الأب : بالضبط هذا ما أريد . وانتهت القصة بأن اختار الأب لولديه هذين الاسمين : الابن رقم واحد . . والابن رقم اثنين !

* * *

وإذا كان اليهود قد سرقوا أرض فلسطين ، فإن هذه الأرض هى أكبر من كل أطماع اليهود ، بل إن اليهود لم يكن من أحلامهم ، أول الأمر ، أن تكون لهم فلسطين ، فقد كانوا يحلمون بأى أرض وفى أى موقع . . وكان بكاؤهم عند حائط المبكى ليس فقط على أن المعبد قد انهدم عليهم أكثر من مرة . . وأنهم يتطلعون إلى اليوم الذى يعيدون فيه بناءه . . ولكن على أنهم بغير وطن فى أى أرض . . فلما سرقوا فلسطين راحوا يبكون أيضاً لأنهم لا يملكون الأرض العربية من النيل إلى الفرات . . وسوف يجدون من العلماء من يقول لهم أن الفرات معناه كل نهر به ماء عذب . . ومعنى ذلك أن يملكوا كل أرض بها نهر . . بل إن بعض المذاهب الدينية اليهودية تبكى على قيام الدولة نفسها . . لأن قيام الدولة هو تدخل فى مشيئة الله واستعجال ليوم الخلاص . . وكان من الواجب على اليهود أن ينتظروا فى حواريهم وفى ظلماتها ، حتى تنشق السماء ويطلع لهم نور

الخلاص .. ولكنهم هم الذين اغتصبوا إرادة السماء، وأكرهوها على الخلاص الدموى .. فاستحقوا العقاب والعذاب ..

ولما انهدم المعبد أكثر من مرة، أقام اليهود معبداً آخر عاشوا فيه ومن أجله سرا فى كل أرض. هذا المعبد هو التوراة .. وهو التلمود والمشنا والمدراش والجمارة ودلالة الحائرين، وكتب أخرى كثيرة، كانت مأواهم وملاذهم وخرافاتهم يجترونها ويبكون عليها .. ويطالبون بالعودة إلى أرض صهيون .. فعندما هربوا إلى بابل جلسوا على نهر الدجلة والفرات يتذكرون قصور صهيون .. ويتغنون بها .. مع أنه لم تكن هناك قصور ولا قلاع .. ولكنها أحلام الذين يقيمون فى الخيام على أطراف المدن التى تكرههم .. ولكنها أحلام الذين احرقتهم الصحراء أن يحلموا بالأنهار والينابيع والظلال والحدائق والعسل واللبن والخمر .. وأن يذهبوا فى خيالهم إلى أن تنتهى صلواتهم وطعامهم وشرابهم وأعيادهم بهذه العبارة: العام القادم فى أورشليم.

إن هذا الإصرار الجنونى عند اليهود قد أوصلهم إلى كثير مما يريدون .. وهذه عبرة لنا. ويجب أن ننظر إليها بهدوء؟ .. بل يجب أن ننظر إلى كل شىء بالعقل والحساب. بل من الضرور أن نعيد وزن كل شىء كان منا وكان منهم.

* * *

ومن المناسب أن أستعير عبارة للرئيس السادات عندما تأزمت العلاقات بيننا وبين السوفيت. فقال: يجب أن تكون لنا وقفة موضوعية مع الصديق.

أى يجب أن ننظر وراءنا فى غضب معقول. وأن نعاود النظر لا أن نغض النظر، وأن نراجع حساباتنا لا أن نتراجع عنها. وأن نلق الكثير من الضوء حتى نرى أوضح .. نرى ما كان لنعرف بوضوح ما سوف يكون ..

ونحن يجب أن تكون لنا وقفة موضوعية مع العدو. وأن نكف عن استخدام عبارات كثيرة لنا أو ضدنا .. فلا هو قوى جداً. ولا نحن ضعاف جداً .. ولا نحن أقوياء جداً بعددنا وسلاحنا وأموالنا، ولا هو قليل العدد قليل الحيلة، وإنما يجب أن نعرف بالضبط ما هو وما الذى يستطيعه وكيف .. وما هى نقاط ضعفه .. وما هو هذا التمزق فى داخل إسرائيل. فمن المؤكد أنه مجتمع متمزق. وأن إسرائيل تعانى من آلام

لا تجد علاجاً . فنى قلب إسرائيل أوجاع كثيرة ، وفى بطن إسرائيل تقلصات عنيفة . هذه حقيقة ـ كما سنرى فيما بعد ـ ويكفى الآن أن أؤكد هذه الحقيقة : أن إسرائيل بكل أحزابها السياسية والدينية وعلماء الدراسات الإنسانية لم تتفق على معنى هذا السؤال : من هو اليهودى ! ولم تجد حتى الآن إجابة تقنع الجميع . ولذلك ليس فى إسرائيل دستور مكتوب . . بل هناك أنواع من « التيسيرات » على المواطنين . .

خطوة في طريق طويل مرير!

إذا كانت لكم أولاد كثيرة وعشتم طويلا على هذه الأرض، وتعاظمت خطاياكم وحاولتم إغاظة الرب فإنني أشهد عليكم هذه السماء، وأشهد هذه الأرض التي تعبرون إليها نهر الأردن لعلكم تملكونها.. إنكم لن تعيشوا طويلاً، بل سوف تهلكون لا محالة. وسوف يبددكم الرب بين الشعوب ويصبح عددكم قليلاً بين هذه الشعوب التي يسوقكم إليها - هذا المعنى جاء في سفر «التثنية» (الأصحاح ٤ الآية ٢٧).

وفي سفر عاموس (الأصحاح ٥ الآية ٢٦): ويجلب عليك الرب وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أياماً لم تأت من قبل.. وفي ذلك اليوم يصفر الرب للذباب في أقصى ترع مصر.. وللنحل في أرض آشور وتحل جميعاً في الأودية الخربة وفي شقق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي.. وكل الأرض سوف تكون شوكاً.

ولم تصدق نبوءة واحدة من كل نبوءات التوراة كهذه النبوءة، فتفرق اليهود في كل أرض. وطردوا من كل مدينة. والتف اليهود حول التوراة التي أخافتهم وأفزعتهم.. تماماً كما ينام الإنسان بالقرب من النار. فهي مصدر الدفء وهي مصدر الموت أيضاً - كما قال الكاتب اليهودي الشهير الذي اسمه «سلام عليكم» أو «شالوم عليخم». وفي التوراة

جاءت آيات كثيرة تقول لليهود : إن تبتم . . إن عرفتم الرب . . إن صليتم . . إن ضحيتم . . إن كانت إجازتكم يوم السبت ، فإن الرب سوف يعطيكم كما أعطاكم من قبل .

ولذلك كان الحلم الكبير عند اليهود أن تكون لهم أرض . . فى أى مكان . . وعلى هذه الأرض سوف يقيمون « دولة التوراة » يطبقون فيها كل تعاليم السماء . وسوف يجعلون فى هذه الدولة كل شيء كرهوه : لن يكون فيها إلا دين واحد . . وغير يهود . . لن يتسامحوا مع أحد من الناس . لن يجد اليهود أنفسهم مضطرين إلى الزواج من الشعوب الأخرى . ولن يتواروا فى الديانات الأخرى ، خوفاً منها ، أو توسلاً إلى إفسادها على أصحابها وتخريبها من الداخل . سيكون الوطن يهودياً من أوله لآخره .

وبإنشاء هذا الوطن اليهودى يبدأون المرحلة الثانية وهى أن يطبقوا تعاليم التوراة على الشعوب الأخرى . لأن الرب قد اختار اليهود ليقودوا العالم كله . لأنهم شعبه المختار . وكل محاولة من الشعوب الأخرى لاعتراض اليهود ، هى محاولة لتعطيل إرادة الله . . وليس بعد ذلك ذنب . وهذا الذنب لا عقاب له سوى الموت . ولذلك فاليهود يرون الحرب والقتل والسفك أسلوباً شرعه الله لليهود ضد كل الشعوب الأخرى التى تدين لهم ، أو يجب أن تدين لهم بالطاعة . .

وقد سئل حاخام كبير فى التلمود : قل لى يا معلم ماذا يحدث لنا إذا تحول العالم كله إلى يهود ؟!

قال المعلم : هذا لن يكون ؟

ـ ولماذا يا معلم ؟

ـ لأن اليهود شعب اختاره الله . . فإذا كانت كل الشعوب يهوداً ، فلا شعب مختار . . وإذا كان الناس ملوكاً فمن هم الرعية . . وإذا كانت كل المعادن ذهباً ، فلا قيمة لكلمة معادن . . ولا قيمة للذهب . . إن للذهب قيمة لأن هناك معادن أخرى لا قيمة لها . . فيجب أن تكون شعوب كثيرة حقيرة ، ليكون اليهود خير الشعوب وسادتها .

* * *

ولكن اليهود فى إسرائيل لم يتفقوا على شىء من هذا كله. فهم فى إسرائيل متفرقون تماماً.. وعلى الرغم من أنهم أغلبية، فإنهم يتصرفون كما لو كانوا أقلية مضطهدة.. أو أقلية محتقرة.. والحقيقة أن الطبقة الحاكمة فى إسرائيل من البيض وهى أقلية إذا ما قورنت بالطبقة المحكومة من اليهود الملونين.. فالطبقة الحاكمة يهود من الدرجة الأولى. والمحكومون يهود من الدرجة الثانية لأنهم شرقيون ولأنهم ملونون..

وفى إسرائيل ثلاثة أنواع من اليهود:

اليهود الغربيون « الاشكنازيم » وهم أبناء روسيا وبولندا ورومانيا وألمانيا..

واليهود الشرقيون « السفرديم » وهم أبناء أسبانيا والبرتغال وبعض أبناء البحر الأبيض المتوسط والعراقيين واليمنيين..

واليهود الهنود « بنو إسرائيل » وهم طراز خاص من اليهود. يقولون إنهم هاجروا إلى الهند عندما تحطم المعبد فى القدس فى المرة الثانية.. ولذلك فهم أقرب الناس إلى اليهود القدامى. والديانة اليهودية التى يمارسونها هى الصحيحة. ولذلك فهم أحق الناس بحكم إسرائيل.. ولكن حكام إسرائيل لهم رأى آخر: إن هؤلاء الناس ليسوا يهوداً فى الدرجة الأولى. لأن معتقداتهم قد امتلأت بالخرافات. ودخلتها بعض التعاليم البوذية. ثم إنهم ملونون!

والأحزاب الدينية فى إسرائيل متنازعة متعارضة. ولكنها يجب أن تتفق ضد الأحزاب الملحدة. وترى الأحزاب الدينية أن الدين هو الذى حفظ الشعب اليهودى ألوف السنين، وأن الدولة اليهودية هى ثمرة سامة على شجرة الدين.. والأحزاب السياسية تقول إن الدين أبقى على الناس ولكنه لم يعط الناس شيئاً سوى البكاء والمزيد من البكاء.. فأقصى ما كان يقوله رجال الدين هو أن يرددوا المزمور الذى يقول: على مياه بابل جلسنا نبكى وسوف نبكى كلما تذكرنا جبل صهيون ـ فلا شىء إلا البكاء ولكن السياسة هى التى حققت أحلام رجال الدين.

والأحزاب السياسية تستخدم المعتقدات الدينية فى تحقيق أهدافها.. والأحزاب الدينية تستخدم الأساليب السياسية فى تحقيق أوهامها.. كلاهما يعتمد على الدين فى الدرجة الأولى.

بل إن المذاهب الدينية كانت ترغم اليهود فى كل مكان على اتباع حرفية التعاليم، ولا تزال . . فمثلاً يجب أن يصلى اليهود لنزول المطر. حتى لو كانوا يعيشون فى بلاد لا تتوقف فيها الأمطار. ولابد أن تقام الصلوات ثلاث مرات كل يوم. وفى نهاية كل صلاة يتصافح الناس قائلين : فى العام القادم فى أورشليم . . وكذلك الصلوات فى عيد الغفران يجب أن يسرف المصلون فى الدعوة إلى العودة إلى أورشليم . . ولابد أن يصلى كل يهودى من أجل الحصاد، حتى لو كان يعيش فى صحراء ليس فيها عود واحد أخضر.

يجب أن يظل اليهود يحلمون بذلك اليوم حتى لو لم يكن هناك أمل فى تحقيقه . . وقد أطلق اليهود على أنفسهم : أبناء الأحلام . . وكان يوسف عليه السلام أول من فسر الأحلام . . وكان فرويد اليهودى أعمق من قام بتحليل الأحلام فى العصر الحديث . . إن رصيد اليهود من الأحلام التاريخية كبير جداً . . إنهم يحلمون وعيونهم مفتوحة . وفى التوراة أنبياء يحلمون ويرون المستقبل ويضعونه كأنه فى أيديهم، أو كأنهم يضعونه بأيديهم . . ثم يلقون به فى المستقبل ليتحقق بعد ذلك بعشرات القرون . .

ومثل هذه الأحلام وانتظار يوم الخلاص قد أوقع اليهود فى مصائب كثيرة . . فقد ظهر عدد كبير من النصابين يزعمون أنهم أنبياء وأن السماء قد ألقت بهم فى طريق شعبهم لينقذوه من الظلم والاضطهاد فى كل أرض وكل شعب . . من أمثال : شلومون مولوخ والنصاب الأكبر شتباى تزيفى . . وقد تعلق اليهود بهؤلاء الأدعياء وأنفقوا عليهم . . وساروا معهم ووراءهم إلى الهاوية . .

ولكن فى القرن التاسع عشر يظهر نوع آخر من الخلاص . إنه « الخلاص الذاتى ». أى أن يقوم اليهود بتخليص أنفسهم مما هم فيه ـ ولا داعى لأن ينتظروا معجزة السماء . . « فلا معجزة هناك ولا سماء » ـ كما يقول الزعيم اليوغسلافى يهودا الهكلاى (١٧٩٨ - ١٨٧٨) وإنما على اليهود أن يلمسوا الأرض بأيديهم وأرجلهم وأن يؤمنوا أن خلاصهم من تراب ودم . وهذا الزعيم الهكلاى هو أول من طالب بإقامة وطن قومى لليهود عن طريق شراء الأرض فى فلسطين . . تماماً كما فعل إبراهيم عليه السلام حين اشترى أرضاً من الملك عفرون .

أما الزعيم البولندى كالهشير (١٧٩٥ - ١٨٧٤) فهو أول من طلب إلى عميد أسرة

روتشيلد فى فرنسا أن تعاونه على شراء أرض بالقرب من مدينة يافا . وقد ساهم « الاتحاد الفرنسى الإسرائيلى » فى شراء قطعة أرض جعلوها مدرسة زراعية .

وفى ذلك الوقت كان اليهود فى أوروبا الشرقية يلقون جميع أنواع الهوان والعذاب . فروسيا حددت لهم مناطق لا يخرجون عنها . ثم إنها حتمت عليهم أن يشتغلوا فى الخدمة العسكرية خمسة وعشرين عاماً . وبذلك لا يكون اليهود فى عزلة ولا يتفرجون على المجتمع الروسى ، وليس لهم إلا هدف واحد هو أن يكسبوا دون أن يشاركوا بالخسارة أو بالتضحية من أجل أحد . .

وقد وصف الكاتب اليهودى « شلومو عليخم » حالة اليهود فى روسيا بقوله : نحن بفضل الله متسولون !

* * *

وقد عزف كثير من اليهود على أوتار « الوطن القومى » . ولكن فى نفس الوقت لم يكن من أمل أحد أن يكون هذا الوطن فى فلسطين أو هو فلسطين نفسها . فقد ارتضى عدد من اليهود أرضاً فى أفريقيا وفى أمريكا . . بل إن بعض اليهود أعلن أنه لا داعى « لأن يكون هناك وطن لنا . . فالعالم كله وطننا . . بل أمريكا وحدها تكفى : فأمريكا هى أورشليم وواشنطون هى صهيون ! »

وفى نفس الوقت توالت الهجرات على فلسطين . وكانت الهجرة الأولى يسمونها « العالية » الأولى أو العلو الأول أو « الطلعة الأولى » فيما بين ١٨٨٢ - ١٩٠٣ وبلغ عدد المهاجرين خمسة وعشرين ألفاً . اتجهوا جميعاً إلى مدينة القدس والخليل وصفد وطبرية .

وانعقد فى بازل بسويسرا أول مؤتمر صهيونى عالمى سنة ١٨٩٧ وكان أبرز أعضائه الصحفى الرومانى هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) . وهرتسل قد عاش معظم سنى حياته فى النمسا . . وفى هذا المؤتمر الصهيونى اتفق « حكماء صهيون » على وضع « البروتوكولات » المشهورة . وفيها وضعوا خطة للسيطرة على العالم . . أو على الأجهزة الحساسة فى العالم . وفى هذا المؤتمر أيضاً وضعوا النشيد الوطنى لإسرائيل واسمه « الأمل » ـ هاتكفاه ـ وصمم أحد تجار مدينة كولونيا بألمانيا العلم الإسرائيلى من الأبيض والأزرق . . وفى هذا المؤتمر انسحب حاييم وايزمان وهو صهيونى روسى ولد منذ

مائة عام تماماً وكان أول رئيس لإسرائيل ـ عندما لاحظ أن المناقشات تدور حول أن يكون لليهود أى مكان آخر فى العالم غير فلسطين . وكان تشمبرلين الوزير البريطانى قد وعد هرتسل بأن يعطيه أرضاً من كينيا لتكون وطناً لليهود . .

وبدأت الهجرة الثانية أو « الطلعة الثانية » إلى إسرائيل (١٩٠٤ - ١٩١٤) وتضمنت أربعين ألفاً من يهود أوروبا الشرقية . وفى نفس الوقت هرب مليونان إلى أمريكا . . ومن بين هؤلاء « الطالعين » إلى فلسطين بن جوريون واعتنق اليهود فلسفة عملية فى فلسطين : أنه لابد لهم أن يعملوا بأيديهم . وأن يملكوا الأرض وعلى هذه الأرض يقيمون ويعملون على إنتزاع مزيد من الأرض بأى ثمن . .

وفى الحرب العالمية الأولى شارك اليهود بعدد من الجنود أطلقوا على أنفسهم اسم « **بغل صهيون** » . . أو « حمارتك العرجاء » وكانت هذه القوة الصغرى هى نواة « الفيلق اليهودى » الذى شارك مع الإنجليز فى إخراج الأتراك من فلسطين . . ثم حان موعد « الطلعة الثالثة » (١٩١٥ - ١٩٢٣) . . ومن الذين هاجروا إلى إسرائيل فى هذه المرة : **جولدا مائير** الروسية الأصل . .

وكانت « الطلعة الرابعة » بعد ذلك (١٩٢٤ - ١٩٢٦) . وقد احتوت على عدد من يهود أوروبا الشرقية ، وأكثرهم هاربون من بولندا .

وبقية القصة الرهيبة توالت فصولها ، مع إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، وعلى وعد من بريطانيا بأن يكون لليهود وطن . ومع الحرب ضد العرب ومع الموقف الهزيل للأمم المتحدة . . ومع الصراعات الدموية على الأرض العربية وعلى التمزق الشديد من الدول العربية ، بتشجيع من الدول الاستعمارية . .

وكل هذه المراحل فى حاجة إلى أن نتناولها بالحساب . بلا غضب . بلا سخط . . فإن الغضب وحده قد جربناه . وكان عقوبة لنا . لأننا لم نفعل أكثر من الغضب ومن لعن الأيام . ومن إلقاء كل اللوم على كل الناس إلا أنفسنا . وكان ما كان مما نعرفه بعد وقبل ٦٧ . . ثم كانت سنوات المرارة وامتصاص الشوك ووخز الضمير . . ولم يتغير ميزان القوى ، وميزان التاريخ فى أيدينا إلا بعد أن عبرنا تمهيداً لتحرير الأرض المصرية والعربية . ولم يكن هذا العبور ابن غضب ، ولا حفيد الغرور

والتعالى ولكنه ابن شرعى لحسن الإدراك والتواضع والفهم الصحيح لما فى أيدينا وما فى أيديهم . .

يقول الكاتب اليهودى الساخر **شلومو عليخم** عندما سئل إن كان يسعده أن يكون يهودياً وأن يكون هذا هو حالهم فى كل أرض وكل وقت أجاب : إلى أن نجد شعباً أفضل يرتضى أن يحمل همومنا وخطايانا ، فأنا راض بهذا الأنف الطويل والشعر المجعد ، وهذا الغضب من كل الناس ! . .

ولكننا وجدنا أنفسنا أفضل مما كنا نتصور . . فلا نحن وحدنا الذين حاولنا وانكسرنا ، ولا نحن الذين رحنا ضحية أنفسنا وغيرنا . . وإنما نستطيع إذا وقعنا أن نقف ، وإذا تعثرنا أن ننهض ، وإذا انتكسنا أن نعبر - **حتى هذه المعانى يجب أن نقولها لأنفسنا ولغيرنا بحساب لأن طريق الخلاص طويل مرير !**

لمه يذبحون الخنازير
في دولة التوراة؟

سئل حاخام اليمن ناثان بن الفيومي إن كانت هذه الحياة بكل ما فيها من تناقضات عنيفة . شيئاً ممكناً ؟ فأجاب في كتابه المعروف باسم «بستان العقول» بقوله : لا أستطيع أن أجيب قبل أن أروي لك هذه القصة . ثم قال : إن رجلاً فقيراً كان يعيش في مدينة صنعاء . ومر عليه الملك . ولم يشأ الرجل أن يقف تحية له . واندهش الملك وسأله : كيف لا تقف ؟ قال : لا أقف إلا لسيدي .

فقيل له : ولكن الملك سيد الكون . . وكان تعليق الرجل على ذلك : ولكن الملك يعمل خادماً لخادمي . فأنا رفضت هذه الدنيا كلها . وهي لا تتحكم في عقلي ولا قلبي ولا معدتي . . فأنا سيدها ولكن الملك خادم لها وعبد ذليل .

وأمر له الملك بذهب وفضة وملابس فخمة . ورفضها الرجل وهو يقول : أنت تريد أن تجعلني خادماً لها ولك . ولكني لا أخدمها ولن أخدمك فابحث عن غيري !

وقال له الملك : إذن نحن لا نتفق !

ـ بل اتفقنا تماماً .

ـ على أي شيء ؟

ـ على أنك خادم لها . وعلى أننى لست خادما لأحد ـ ومفروض علينا أن نعيش معاً . وأن تكون حياتنا معاً . أنت النار وأنا المطر . . أنت تحاول أن تشعلنى . وأنا أحاول أن أخمدك . . فلا أنا جففت ولا أنت أنطفأت . . ولن أسكت ولن تسكت . . وسوف يبق عذابنا أبدياً !

* * *

وكان حاخام اليمن رجلا بعيد النظر . وأكثر دراية بقومه من اليهود . فكل ماتوقعه هذا الرجل الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، مايزال مستعراً فى إسرائيل . فأحزانها السياسية هى أحزانها الدينية . . **فرجال الدين يستخدمون السياسة من أجل الحكم بالتوراة ، ورجال السياسة يركبون الدين من أجل تعبئة الشعب ضد العرب وضد العالم كله . .**

ويوم أعلن بن جوريون استقلال إسرائيل وقف الحاخام « **يهودى بن ميمون** » يبارك الكيان الجديد . ويشكر الرب الذى أعطاه العمر ليعيش هذه اللحظة الباهرة : **فقد أصبحت لأغنام إسرائيل الممزقة حظيرة منيعة** » فهذه هى المرة الأولى التى يجد فيها الشعب الضال مكاناً واحداً . وحكومة واحدة . بعد أن كانت لهم حكومة سرية هى حكومة « القهالة » . وأصبح لهم خيط واحد يضم حبات من كل لون وحجم ووزن . .

ويوم أعلنت إسرائيل استقلالها فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ كان عدد يهود إسرائيل ٦٥٠ ألفاً . أى ما يعادل عشرة أمثالهم من عشرين عاماً . وكان أكثرهم يتكلمون اللغة العربية . ولكن اللغة العبرية هى لغة التوراة . ولا تكتمل القومية اليهودية إلا بهذه اللغة . ولا تتم الوحدة القومية بين عشرات الجنسيات واللغات إلا بفرض اللغة الواحدة على كل الناس . وعلى الأطفال والأجيال الجديدة . وكانت هذه فلسفة الساسة ورجال الدين الذين ولدوا فى حارات اليهود فى روسيا وپولندا ورومانيا . واهتدى اليهود فى أول عهدهم بإسرائيل إلى أن هناك حقيقتين أساسيتين هما : **التفوق العلمى والدين . . أو الدين والعلم . الدين يجمع الناس والعلم يدفعهم . الدين يشدهم إلى الأرض المقدسة والعلم يفتح لهم كل العواصم العالمية . .**

ومنذ اللحظة الأولى اتفق الجميع على أن الدولة الجديدة يجب أن تقوم على أساسين من الدين والدنيا .

أما رجال الدين فيرون أن التوراة هي التي جمعت الشعب اليهودي. وأن المعبد عندما انهدم عليهم وعلى أجدادهم، أقام الحكماء معبداً آخر هو « التوراة » و « التلمود » و « المشنا » و « الجمارة » وغيرها من الكتب المقدسة. فالدين هو الذي أمسك الناس حتى لا يذوبوا في الشعوب الأخرى..

أما رجال السياسة فيرون أن « التوراة » لم تنقذ اليهود من العذاب.. وإنما كانت سبباً في أنهم ظلوا منبوذين في كل مكان. فالتوراة هي التي جعلتهم يرتدون ملابس خاصة. وجعلتهم حريصين على الصلاة والذبائح.. وتمسك اليهود بالتوراة هو الذي جعل الأديان الأخرى تطاردهم وتطردهم وتحرقهم وتفرقهم.. ولو خفف اليهود من تهوسهم الديني لعاشوا أفضل وأكرم. ولم يعرف اليهود الحياة الكريمة الشريفة إلا عندما تخففوا من التزمت الديني في أوروبا وأمريكا.. فالدين إذن كان مصدر عذاب لهم.. ولذلك كان من العقل والحكمة وبعد النظر والمرونة أن يخلع الناس دينهم ليكونوا أناسا عاديين!

ومن السهل على أي إنسان في إسرائيل أن يكون له حزب ديني أو سياسي.. تماماً كما كان لليهود من ألوف السنين أنبياء وقضاة ومصلحون.. إنهم حائرون تائهون فإذا رفع إنسان صوته بالغضب التف حوله الناس.. وإذا وعدهم بالخلاص صدقوه وركعوا عند قدميه.. فإذا طالت المسافة بين ما يقول وما يعمل انفضوا من حوله أو قتلوه..

* * *

وبدأ البرلمان الإسرائيلي ـ الكنيست ـ سنة ١٩٤٩ بستة أحزاب سياسية تغيرت وتبدلت وتفرعت وتنكرت لكثير من شعاراتها بعد ذلك..

(١) **الحزب الشيوعي (ماقي)**.. كان من أهدافه البعيدة أن يجمع بين العرب واليهود في تنظيم واحد. وكان من رأيه أن الصهيونية أو القومية اليهودية هي فلسفة برجوازية عميلة لبريطانيا. ولكن الحزب الشيوعي قبل إلغاء الانتداب البريطاني كان يدعو لاستقلال إسرائيل بعيداً عن العرب.

وفي انتخابات سنة ١٩٦٥ انقسم الحزب الشيوعي إلى عربي ويهودي ولم يدخل الحزب الشيوعي الوزارة منذ قيام إسرائيل.

(٢) **حزب اتحاد العمال (مابام)**.. وهو يدعو إلى اقتصاد اشتراكي مخطط وإلى

تحالف كل العمال. وهو حزب لا دينى. وهو يسوى بين العرب واليهود ـ كلاماً فقط ! وهو يطالب بتحييد الشرق الأوسط عن مناطق النفوذ ـ كلاماً أيضاً !

(٣) حزب عمال إسرائيل (ماباى) . . أنشىء هذا الحزب سنة ١٩٢٩ عندما تحولت الصهيونية إلى حركة عالمية شاملة. وهو يدعو لتحالف العمال والفلاحين، من أجل خلق الدولة العبرية. ولكنه أبعد ما يكون عن الدعوة إلى المساواة والحرية والعمل للجميع. فهو أيضاً حزب يهودى شديد التعصب. ويكفى أن نذكر أهم قياداته المعروفة : موسى شاريت وأبا ايبان وليفى أشكول وبنحاس لافون وجولدا مائير وبن جوريون. هذا الحزب أصبح هو والدولة شيئاً واحداً. ورغم التقلبات التى غيرت معالم الحزب من الداخل، فإنه بقى الحزب الذى يحكم ويسيطر منذ قيام إسرائيل. وهذا الحزب رغم أنه لا دينى، لكنه لا يستطيع أن يعارض كل الأحزاب الدينية. وإنما يعتمد عليها فى تحقيق التوازن الائتلافى من حين إلى حين.

وقد أثارت الأحزاب الدينية مشاكل كثيرة بسبب تربية الخنازير التى يحرم الدين أكلها وذبح الأبقار بطريقة خاصة وضرورة وجود حاخام فى كل تشكيل عسكرى ومشكلة الزواج المدنى. وعارض هذا الحزب. ولكنه استسلم فى النهاية. وهذا الاستسلام تكتيكى فقط ـ أى من أجل تسيير الأمور دون اقتناع.

(٤) وهناك جماعة التقدميين . . وهم أحرار متعصبون (؟ !) ويدعون للاشتراكية. ولكن. لا علاقة لهم بأى فلسفة تعبر عن آمال العمال أو الفلاحين . .

(٥) الجماعة الصهيونية . . وهذا الاسم لا يغرك ويجب ألا يخدعك. فهم رأسماليون عاديون جداً. وأهدافهم معروفة. فلهم فنادق وشركات سياحية. وهم متعصبون إلى أقصى درجة.

(٦) جماعة الحرية (حيروت) . . وهم أكثر التنظيمات السياسية تطرفاً ومغالاة فى الوطنية. وقسوة فى معاملة العرب أو النظر إليهم. ومن أهم مبادئه برامجهم السياسية أن تكون حدود إسرائيل السياسية هى حدودها الدينية. أى الحدود التى وردت فى التوراة، من النيل إلى الفرات ـ إن كان هذا قد ورد ! !

* * *

وفى سنة ١٩٤٩ ظهرت أحزاب دينية شديدة التطرف كلها تهدف إلى شىء واحد : أن يتسلموا التركة الجديدة التى عملوا من أجل تحقيقها ألوف السنين . والتى وعدهم بها الأنبياء . .

ولكن فى نفس الوقت ظهرت أحزاب دينية تطالب بالقضاء على إسرائيل نفسها . ويرون فى قيامها كفراً بالله وتدخلاً فى مشيئته . فما كان يجب على أحد أن يقيم هذه الدولة بالقوة . وإنما كان عليه أن يتعذب وينتظر ، وأن يحترق ويصبر وأن يشرد ويتأمل ، حتى يجىء ذلك الإنسان الذى سوف يخلص الجميع من شرور الجميع . . ولذلك يجب أن يعود اليهود جميعاً إلى البلاد التى كانوا يعيشون فى حواريها ، حتى يناديهم داعى السماء ويلم شملهم . . ولما كان هذا الداعى لم يظهر بعد ، فعلى اليهود أن ينتظروا فى مواقعهم ، وليس على أرض إسرائيل !

أما المتدينون المعتدلون فهم الذين يقولون : إن الصهيونية وسيلة لبناء وطن قومى لليهود على أساس من الدين اليهودى والروح اليهودية . وشعار الأحزاب الدينية المعتدلة هو : أرض إسرائيل لشعب إسرائيل تطبيقاً لدين إسرائيل !

بل أن حزب « مزراحى » الذى تأسس سنة ١٩١٨ من الطبقة الوسطى ومن اليهود المحافظين كان ولا يزال يؤمن بأن الدولة يجب أن يحكمها رجال الدين وحدهم ووفقاً لتعاليم الحاخامات ضد الاشتراكية والتعاونية وضد حكم العمال ، مع تشجيع لرأس المال . .

ولكن حزب مزراحى هذا تطور إلى حزب روحانى آخر فلسفته : التعاليم الدينية والعمل . أى تطبيق مبادىء الدين فى العمل فى المصانع والمزارع - ولذلك أقام هذا الحزب « المستعمرات » أو الكيبوتز . .

وهناك حزب دينى اسمه « وحدة إسرائيل » . هذا الحزب عمره ستون عاماً . تأسس فى أوروبا . وهو يعمل على مساعدة الشعوب اليهودية إينما كانت . وتشجيعها على التمسك بالدين . وذلك عن طريق المحاضرات والنشرات والمساعدات المالية .

وفى وارسو سنة ١٩٢٢ تأسس حزب دينى متطرف وإن كان له اسم خادع هو « حزب عمال وحدة إسرائيل » . هذا الحزب كان أساسه أن يعالج النزعات الإلحادية وموجات

التشاؤم التي هي جوهر التفكير اليهودي .

وقد انشق هذا الحزب إلى جمعيات صغيرة متضاربة . وفي سنة ١٩٣٤ اتجه هذا الحزب الديني إلى هيئة عملية تبني القرى على أساس أن المسيح سوف ينزل من السماء . فإذا وجد الشعب المختار قد طبق الحياة الدينية التي جاءت في التوراة فإنه سوف يزحف بشعبه إلى الخلاص وأرض الميعاد . ويقال إن المنقذ الذي انتظره اليهود طويلاً ، أطل برأسه كثيراً ، فوجد شعبه أكثر تمزقاً من أي عصر ، فعاد إلى ما وراء الغيب حزيناً على ما أصاب اليهود . . ويقال إن هذا المنقذ قد نزل بالفعل إلى الأرض . وحاول أن يقدم نفسه لليهود . ولكن انكروه وقتلوه . . وبعض الحاخامات يعرف هذه الحقيقة ويبكون على انهم قد أضاعوا كل فرصة للنجاة . ولا يصارحون شعبهم خوفاً على أنفسهم من الموت شنقاً أو حرقاً !

وقد تشكلت جماعات متطرفة جداً في كثير من العواصم الكبرى وقد اختارت هذه الجماعات لنفسها اسم ' حراس المدينة ' . وهي جماعات نشطة في إسرائيل نفسها . ومهمة هذه الجماعات أن تحرس الدين من أعداء الدين . ففي إسرائيل لا يرعون حرفية الكتاب المقدس . فهم يأكلون اللحوم من كل نوع ـ بما فيها لحم الخنزير وهذا حرام . وهم يعملون يوم السبت ـ مع أن الوصايا العشر تنص على تحريم ذلك . وهم يتزوجون زواجاً مدنياً . . وهم يتزوجون من بنات وأبناء الديانات الأخرى ـ وهذا حرام .

ولذلك فهم يتدخلون في ذلك بأنفسهم فيضربون الناس بالطوب والحجارة . وهم يحطمون نوافذ المطاعم التي تفتح أبوابها يوم السبت . . ويعترضون السيارات والطيارات التي تتحرك يوم السبت . . ويعتبرون كل زواج مدني اعترافاً رسمياً بالزنا . . ويرون أن الدولة بشكلها الحديث كفر إلى أقصى درجة . ولذلك يمنعون الناس من الانتخابات والإدلاء بأصواتهم أو ترشيح أنفسهم .

وعلى الرغم من أن هذه النزعات الدينية المتطرفة تلقى استنكاراً من كثير من اليهود ، فإن الأحزاب الدينية تتمسك بها بصورة أخرى . وترى أن هذا كله شرط لدخول الحكومات الإئتلافية . ولم تستطع كل الأحزاب أن تجاهر بمخالفتها . فقد اتفقت الأحزاب الدينية ضد بن جوريون أكثر من مرة . ورفضت الدخول في الحكومة الإئتلافية إلا إذا

حرم ذبح الخنزير. وكان ذلك صعباً وفى إسرائيل مسيحيون عرب يأكلون الخنزير **ولكن بن جوريون حرم تربية الخنزير فى كل المدن والقرى اليهودية وأباحه فى القرى العربية المسيحية..**

واشترطت الأحزاب الدينية أن يكون الذبح والطهى حلالا أى «كوشير» فاليهود لهم طريقة خاصة فى ذبح الحيوانات. وهى أن يمسك الإنسان سكيناً ويمر بها على عنق الحيوان مرة واحدة فى اتجاه واحد وإلا كان أكل هذا الحيوان حراماً. واشترطت الأحزاب الدينية أيضاً أن تراعى الحكومة هذا الطهى الحلال والذبح الحلال فى الجيش أيضاً. ولابد من تعيين حاخام صغير مع كل تشكيل عسكرى لمراعاة التعاليم الدينية فى الصلاة والمعاملات والأكل والشرب.ووافقت الحكومة على ذلك. وقد رأينا رجال الدين يرافقون قواتهم المسلحة فى كل مكان.. ووجدنا مع الأسرى نسخاً من التوراة والصلوات وكذلك فى المواقع على القناة وفى سيناء. واليهود لهم تاريخ طويل مع الخنازير ولحمها.. فقد كان الرومان يربطون اليهود فى الحبال ويجرونهم مع الخنازير فى الشوارع.. وكانوا يرغمونهم على أكل لحم الخنزير نيئاً ومتعفناً - إمعاناً فى تعذيبهم واحتقارهم!

ولم تفلح الأحزاب الدينية فى إغلاق المطاعم والشركات فى يوم السبت من كل أسبوع، تطبيقاً لتعاليم التوراة. ولكنها لم تيأس بعد. ولا يمكن لأية حكومة إغفال هذه النزعات الدينية المتزايدة. وقد دلت الأرقام على أن هناك نسبة متصاعدة من اليهود يبعثون بأولادهم إلى المدارس الدينية. آخر إحصاء يدل على أن ٣١٪ من اليهود يفضلون المدارس الدينية و١٠٪ يفضلون المدارس الخاصة..

* * *

وهناك مشكلة من نوع خاص جداً هى مشكلة الجيل الجديد فى إسرائيل - أى مشكلة الصابرا.

ولابد أن ترى صورة لهذا الإضطراب السياسى والدينى فى دستور البلاد. ما الذى يجىء فيه وما الذى يحذفونه منه. ولابد أن يكون هذا الإضطراب الفكرى والوجدانى واضحاً فى الخلافات العنيفة والتى تزداد عنفاً بين المذاهب السياسية والدينية، فلم يحدث من قبل أن عاش اليهود معاً فى مكان واحد وعلناً هكذا. ولم يحدث فى كل التاريخ أن

قام شعب بهذه الحدة يأكل نفسه ويحتقر أبناءه ويبكى عليهم، مثلما يفعل اليهود فى إسرائيل الآن - كما سنرى .

* * *

وبعد أن قامت إسرائيل سئل فيلسوفها الأكبر مارتن بوبر : مارأيك وقد قامت إسرائيل ؟

فأجاب : لا قيام لإسرائيل ولا أمان لها إلا إذا حملت عبئها الفريد فى التاريخ . . وإلا إذا راحت ترزح تحت الهموم الثقيلة لجلال الله !

إما التوراة أو لا دستور

موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) طبيب صلاح الدين الأيوبى ، لا يزال أكبر فلاسفة اليهود . وأشدهم تمسكاً بالكتاب المقدس . وهو يرى أن التوراة كتاب الدنيا والدين ، ودستور الشعب اليهودى والمعنى الذى حماه من الإنقراض ولذلك فالذى تحرمه التوراة لابد أن يكون ضاراً صحياً ونفسياً واجتماعياً .

مثلا يقول ابن ميمون فى كتابه « دلالة الحائرين » : إن التوراة حرمت لحم الخنزير . فلابد أن يكون لحم الخنزير ضاراً صحياً . ولو حللت التوراة لحم الخنزير لتحولت البيوت والشوارع والمدن إلى زريبة . . لأن هذا الحيوان قذر شكلاً وطعاماً بل إن فم الخنزير نفسه له شكل ورائحة الحظائر . والتوراة حرمت أن يأكل الإنسان الحيوانات الميتة . . وحرمت أن يقتطع الانسان جزءا من حيوان حى ثم يأكله . فهذه منتهى القسوة . وحرمت تعذيب الحيوان عند ذبحه . ونصت على أن يكون الذبح رحيماً ، حتى لا يتعلم الإنسان القسوة بالحيوان والإنسان .

ويقول ابن ميمون أيضاً ان التوراة تعلم الناس شئون الحياة معاً ، وتهديهم إلى سواء السبيل . فليرجع إليها كل رجل دين وكل تاجر وكل طبيب وكل سياسى . . إنها هى الدستور!

وما تزال هذه مشكلة إسرائيل حتى هذه اللحظة. فإسرائيل ليس فيها دستور مكتوب. لأن الأحزاب الدينية ترى أن الدستور هو التوراة - تماماً كما قال ابن ميمون - فإذا كانت التوراة دستور إسرائيل فهي دولة دينية. ويجب أن يعيش على تعاليم رجال الدين. وأن تحرم ما حرمته التوراة وأن تحل ما أحلته. ولكن الأحزاب الدينية، ليست إلا جانباً من بعض الأحزاب. فهناك أحزاب أخرى لا دينية. وترى أنه لا داعي للنص على دين الدولة. ولذلك يجب ألا تكون التوراة ديناً أو لا يكون هناك دستور.

وهناك « صراع حضارى » حاد بين كل الفئات والجنسيات والمذاهب الدينية والسياسية، منذ أعلن قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧.

* * *

وحاولت الوكالة اليهودية أن تقدم مشروع دستور. وكلفت خبيرها يهودا كوهن أن يقوم بهذه المهمة التاريخية الشاقة، ولكنه لم يفلح وإنما فقط أشار إلى « أن إسرائيل دولة فريدة فى نوعها ». فهى تشبه مجتمع الحجاج الأمريكان الذين هاجروا من أوروبا. لولا أن إسرائيل لها تاريخ قديم. وأن دين إسرائيل يجعل لها رسالة كونية.

وكل مشاريع الدستور التى قدمت للدولة الجديدة تبدأ عادة بشكر الله ولوم اليهود على أنهم لم يتفقوا على شىء. وأنه يجب ان يتفقوا. ففى مقدمة دستور الوكالة اليهودية نقرأ: شكراً لله العلى العظيم الذى حررنا من ربقة الذل والهوان، وأعطانا أرضاً وموطناً، وجمع المشردين فى كل أرض ووطن. ومنحنا هذه الفرصة لنقيم دولة على التمسك بالمثل العليا والدعوة إلى الخير والسلام والمحبة التى نادى بها أنبياء إسرائيل.

ولكن ليست هذه إلا مقدمة فى مشروع دستور يقول « إن إسرائيل هى الوطن القومى لليهود، وأن حق الهجرة إليها مكفول للجميع ».

وينص مشروع الدستور هذا على أن يكون السبت إجازة مقدسة.. وعلى أن الزواج يجب أن يتم أمام رجال الدين.. وأن اللغة العبرية هى لغة البلاد.

ولكن أحداً من الأحزاب الدينية لم يوافق على أن يكون هناك أى دستور غير التوراة. وأن مثل هذه العبارات الملفوفة هى كاذبة ومضللة. فالدولة لا تحترم إجازة

يوم السبت. والدولة ما تزال تسمح بالزواج المدنى. ولا تراعى وسائل الذبح الشرعية.. كما أن الدولة قد توافق على أن تعمل المرأة وأن تذهب إلى ميدان القتال.

بل إن حزباً دينياً متطرفاً هو « حراس المدينة » يرون أن قيام الدولة باطل، لأنه ليس من حق أحد أن يقيم دولة. إنه ' المسيح المنتظر ' هو الذى يقيم الدولة، فالدولة لا تقوم من الأرض، وإنما تهبط من السماء.

ثم إنه يجب ألا تكون هناك مساواة بين الرجل والمرأة. وابن ميمون نفسه قد أكد على ضرورة عدم المساواة بين رجل وامرأة.

وابن ميمون يقول: المرأة لا مكان لها بين الحكام، مكانها البيت، ووظيفتها الأمومة والزوجية.

وفى أول اجتماع للكنيست طلب حزب المابام إلغاء المحاكم الشرعية.

وعادت الأحزاب الدينية تقول: إنه يجب ألا تكون هناك أكثر من توراة.. التوراة واحدة وهى التى يجب أن تكون الدستور.

ولم تتفق الأحزاب جميعاً على أن يكون هناك دستور مكتوب للبلاد.

بل إن بن جوريون نفسه قد أجل عرض مشروع الدستور على البرلمان، حرصاً على إئتلاف الأحزاب فى حكومته.

* * *

وظهر من يقول إنه فعلاً لا داعى للدستور، فهناك دول كثيرة ليس لها دستور مكتوب مثل بريطانيا.

كما أن أمريكا نفسها لم يكن لها دستور مكتوب فى السنوات الأولى من نهضتها. ثم إن الدستور المكتوب ليس دليلاً على الديموقراطية، فهناك حكومات استبدادية تستند فى كل أعمالها على نص من الدستور وعلى اجتهادات الفقهاء، وفقاً للدستور.

ومن يقول: لابد لاستكمال الشرعية السياسية والدولية أن يكون هناك دستور، وأن

يكون النظام قدوة للمهاجرين الجدد إلى البلاد.. كما أن التوراة لا يمكن أن تفى باحتياجات العصر. حتى التلمود الذى يعتبر أحدث من التوراة قد ظهر فى عصور قديمة.. وظهرت له شروح واجتهادات أيام كان اليهود مبعثرين فى الأرض ولم يكن من أحلامهم وجود دولة لهم على أرض أو فى أى عصر.

وفى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٠ ظهر اقتراح أكثر ذكاء ومرونة. وهو أنه لا داعى لأن يكون هناك دستور.. ولكن لا مانع من عرض مواد دستورية على البرلمان قد يوافق عليها الأعضاء واحدة واحدة. ورأى الجميع أن هذا هو الحل السعيد. وتوالت المواد على البرلمان. ووافق عليها الأعضاء. ولكن الأحزاب الدينية رفضت أن تدخل هذه المصيدة التى تؤدى فى النهاية إلى أن تكون هناك فتافيت دستورية.. وبعد ذلك يتم تركيبها على شكل دستور.. فكأن هذه الأحزاب قد رفضت الدستور بالجملة وأقرته بالقطاعى!

وفى فبراير سنة ١٩٥٨ قدمت المادة الأولى من الدستور «القانون الأساسى: البرلمان» ووافق البرلمان على هذه المادة الأساسية. وبعد ذلك لم يتفق أحد على أى شىء وهذا هو التفسير الوحيد لأن تكون كل الحكومات إسرائيل إئتلافية. أى حكومات اتفقت على أن تختلف. أو اتفقت على ألا تتفق.

وتوالت بعد ذلك الخلافات الأساسية على أوسع نطاق. مثلا: أين يصلى الناس؟ والإجابة: فى المعابد.

- فإذا لم تكن هناك معابد؟

- لابد أن نبنى للناس معابد.

- طلبة المدارس مثلا لماذا لا يصلون فى الفصول أو فى الحوش؟

- هذا ضد الدين. مكان الصلاة هو المعبد. وليس أى مكان آخر.

مشكلة أخرى: هل يصلى الرجال مع النساء.

- طبعاً. الرجال فى مكان والنساء فى مكان آخر.

وقد قامت مظاهرات دينية بسبب اجتماع النساء والرجال أمام حائط المبكى. ولذلك وجدنا فاصلاً بين الرجال والنساء أمام حائط المبكى. الدين ينص على ذلك!

ونشرت الصحف الدينية فى سنة ١٩٥٩ : إنها لمهزلة كبرى أن يذهب الرجل وعشيقته مخمورين ويقفان جنباً إلى جنب وقد وضع كل منهما يده على حائط المبكى ويستغفر الرب . . لا هذا دين ولا هذا رب . وأفضل أن يقام حائط آخر فى مكان آخر : فى فندق أو فى بار !

* * *

قصة هامة جداً : الطلاق والزواج هل هو مدنى أو شرعى ؟

وفى ١٩٥٣ ثارت مناقشات عنيفة عن الزواج أمام رجال الدين وأمام المحاكم الشرعية . رجال الدين يرون أن الزواج المدنى نوع من « الزنا الرسمى » . والأبناء الذين يخرجون منه غير شرعيين . وليست لهم حقوق مدنية . كما أن الزوجة إذا طلقت مدنياً وتزوجت بعد ذلك فأبناؤها غير شرعيين أيضاً . وإذا كان زواجها الأول شرعياً ، وزواجها الثانى مدنياً . . فهناك تفرقة بين أولاد الحلال وأولاد الحرام . . وسوف تظل هذه التفرقة عاراً عالقاً بالأسرة كلها إلى الأبد !

ثم ما هو حكم الدين فى زواج اليهودية من مسيحى ؟ أو زواج اليهودى من مسيحية ؟ الدين يقول : حرام . ولكن ما الذى تفعله الدولة إذا تم هذا الزواج خارج إسرائيل . وقد حدث ذلك كثيراً فى السنوات الأخيرة . وحدث ذلك فى مئات السنين عندما كان اليهود يبحثون عن أية طريقة للبقاء والأمان فى البلاد التى هاجروا إليها .

الأحزاب الدينية ترى أن هذه دعوة إلى تمزيق إسرائيل واختلاط دمائها . . وهدم للتوراة التى أبقت على الشعب اليهودى حتى الآن .

إن هناك عرفاً بين اليهود يحرم على كل من له اسم « كوهين » أن يتزوج إلا بشروط خاصة . فكلمة كوهين معناها الكاهن أو العالم . وهذه الكلمة تتغير حسب اللغات فهى : كوهن وكاهن وكاهان وكيهن وكون وكين وكونكا وكاجان . وكل من يحمل هذا الاسم يجب ألا يتزوج غانية أو مطلقة . . ولا يتزوج لقيطة ولا ابنة غير شرعية ولا يتزوج مدنياً . وقد حدث كثيراً جداً أن هرب أكثر من « كوهين » إلى الخارج وتزوج على النحو الذى يعجبه . فإذا عاد إلى إسرائيل فليس لأحد أن يعترض على زواجه !

وهناك مشكلة المشاكل : الأرملة . . أى الزوجة التى مات زوجها . أو هرب ، أو

اختفى . أو تزوج واحدة أخرى وعاش فى الخارج وليس فى إمكانها أن تعود إليه . أو لا تريد ولا يريد . فإذا كان الزوج حياً فلابد من طلاقها . أما إذا كان ميتاً ولم يكن لها أولاد ، فالدين ينص على أن يتزوجها أخو زوجها . لابد أن يفعل ذلك . فإذا أنجب ولداً أو بنتاً ، فيجب أن يكون لها اسم والدها ، إبقاء على المرحوم ، فإذا رفض الأخ أن يتزوج أرملة أخيه كان على الأرملة وأمام رجال الدين ، أن تخلع حذاء هذا الأخ وأن تبصق فى وجهه وتقول : مثلك يستحق هذا أمام الناس وأمام الرب . . والتوراة تقول إن هذا الأخ يجب أن يوصف بالأخ الحافى . فإذا أصبح حافياً وجب عليه أن « يخلصها » أو يطلق سراحها . . فإذا رفض أخو الزوج أن يطلق سراحها ، فالدين يرى ضرورة سجنه . ولكن النائب العام لا يستطيع أن يسجنه إلا إذا اعتقله البوليس . . وإلا إذا وقف أمام محكمة مدنية . وهذه مشكلة أخرى أكثر تعقيداً .

وهذا يفسر لنا حرص اليهود على إنتشال جثث قتلاهم . . أو أى شيء يدل على أنهم ماتوا : أصبعاً . . رجلاً . . خاتماً . . بنطلوناً . . بصمة . . لأن إعلان وفاة أى جندى يترتب عليه إجراءات كثيرة فى الزواج والطلاق والوراثة والدفن والصلوات والدعوات وتغيير معالم البيت . . وهذه الأرملة لا تتزوج إلا إذا طلقها أو سرحها أخو زوجها !

* * *

ومن مشاكل المجتمع الإسرائيلى المتعدد الألوان والأجناس واللغات والثقافات والقيادات جماعة « بنى إسرائيل » . وهى جماعة هندية . ويقال إنها هربت إلى الهند ، وغرقت بها سفينة . وكان ذلك بالقرب من الشاطىء سنة ١٧٥ قبل الميلاد ، واستطاعت هذه الجماعة أن تعيش فى أقصى جنوب الهند ، وقد رأيت أنا معابدها فى مدينة كوتشين فى ولاية كيرالا . وهذه الجماعة بقيت يهودية ولكن ديانتها من نوع خاص . لأنها انعزلت عن يهود العالم . ومن المؤكد أنها يهودية . ولكن معتقداتها غريبة ساذجة . وربما كان أول اتصال لبنى إسرائيل هذه بالعالم الخارجى كان بيهود العراق فى القرن التاسع عشر . . وقد حاول هرتسل أن يدعوهم إلى أول مؤتمر صهيونى عالمى عقد فى مدينة بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ . وطلب إليهم أن يبعثوا مندوبين عنهم ، ولكنهم اعتذروا لأن لهم رأياً خاصاً هو : أن إسرائيل لا يقيمها إنسان . وإنما الله وحده هو الذى يفعل ذلك ! ولذلك يجب على الشعب اليهودى أن ينتظر إشارة السماء !

وفى سنة ١٩٦٠ هاجر منهم إلى إسرائيل حوالى سبعة آلاف . . وبقى من اليهود حوالى العشرين ألفاً .

ولما ذهبوا إلى إسرائيل كانت معهم مشاكلهم التقليدية : هل لهم الحق فى الزواج من اليهوديات ؟ هل لهم الحق فى الزواج من غير اليهوديات ؟ إن دينهم غريب . لا يكاد يكون يهودياً . فالزواج منهم حرام . . وحتى لو كانوا يهوداً فهل يتزوجون من المسيحيات !

حكمت المحكمة الشرعية العليا بأنهم يهود انعزلوا عن اليهودية العالمية . ولهم كل حقوق اليهود فى إسرائيل . واعترضت هيئات دينية على أنهم يهود . . وتظاهرت جماعية بنى إسرائيل أمام « هيكل سليمان » ـ أى المحكمة العليا ـ وأجابتهم إلى مطالبهم فى الزواج من اليهوديات فهذه مشكلة أخرى . . وهذه الجماعة وغيرها لها مشاكل أعقد ، كما سوف نرى .

* * *

إن هناك حكمة يهودية تقول : إن أماً واحدة تستطيع أن تعول عشرة من الأولاد من كل لون ولغة . ولكن عشرة من الأبناء لا يستطيعون أن يعولوا أماً واحدة . إن إسرائيل قد أعانتهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعينوا إسرائيل على تمزقها اللونى والطبقى والسياسى والدينى !

هؤلاء الأطفال.. من الذي يعلمهم الكراهية؟

كل شعب له لحن يتغنى به . وإسرائيل يجب أن تغنى ألحان الشعوب . كل ألحان الشعوب . أو تغنى نيابة عنها . فرسالتها عالمية . ومهمتها سماوية ـ عبارة قالها مارتن بوبر فيلسوف إسرائيل ! وهذه هي واحدة من مشاكلها الكبرى . فاليهود قد جاءوا إلى إسرائيل من كل بلد . وكل بلد له لحن . فهم يغنون كل ألحان الشعوب ، ولا يغنون لحناً واحداً . وهم مختلفون ممزقون متناحرون . ومستحيل أن يتفقوا على شيء . ولذلك كانت محاولات الأحزاب الدينية والسياسية أن تستولى عليهم .

وقد ظهر ذلك صارخاً فى نظم التعليم فى إسرائيل . . نحن الذى يعلم من ؟ وما الذى يعلمه ؟ وما الفائدة التى يجنيها المرء من وراء هذه الحشود الضالة من المهاجرين من كل أرض ومن كل سن ومن كل مذهب دينى أو لا دينى ؟

وكان من الطبيعى أن تنتقل معارك الأحزاب إلى المدارس والمعاهد . فكل مذهب يريد مثلاً أعلى للمواطن . واختلفت المثل العليا . فقبل إلغاء الانتداب البريطانى على فلسطين كانت هناك مدارس دينية فى المدن المقدسة : القدس والخليل وصفد وطبرية . وكانت هذه المدارس تتلقى الهبات من يهود العالم . ولم تكن هذه المدارس واضحة المعالم . وإنما أهم براجمها هو التاريخ اليهودى . التاريخ السياسى والدينى . ولم يكن أحد يراعى

نسبة الدين إلى الدنيا فى تعليم الأطفال أو الشبان . وإنما كل مدرسة تجتهد فى تصورها لما يجب أن يكون عليه المهاجر اليهودى أو المستوطن الجديد .

* * *

ولكن حدث فى سنة ١٨٦٥ أن أنشئت مدرسة لا دينية فى القدس . . فبرامج التعليم لم تكن ترى أن اليهودية هى دين : وإنما اليهودية هى الشعب الضال الممزق فى كل أرض . وترى ضرورة تجميعه بالذوق أو بالقوة فى مكان واحد وإرغامه على البقاء بأى ثمن . وعندما أحست الفئات الدينية بهذه النزعة الإلحادية فى المدارس ثارت المعابد على المدرسة . وسار المتدينون فى الشوارع يبكون ويقفون عند حائط المبكى ينفخون فى البوق ـ الشوفر ـ ويعلنون : كافر كل من يذهب إلى هذه المدرسة . . هو وأبوه وأمه . . حرام كل من يلمس أحداً ذهب إلى هذه المدرسة . .

ورجال الدين لم يشفع عندهم أن هؤلاء المهاجرين قد جاءوا إلى إسرائيل لأسباب قومية ، لا لأسباب دينية . . فهم أناس بلا وطن . وهم منبوذون . وهم أقلية حقيرة . أما الدين ففى صدورهم . . أو أن الدين هو الذى فرض عليهم الهوان . ولكن « الوطن » أو « العثور على وطن» هو الذى ينقذهم جسماً وروحاً . فلا داعى إذن لتعذيب المهاجرين الجدد من أجل دينهم أو بسبب دينهم . . كأنهم غرباء فى أرض غريبة .

ولكن الإنجليز لم يتدخلوا فى تعليم اليهود ، وإنما تركوا لكل فئة سياسية أو دينية أن تعلم أبناء الطائفة اليهودية على النحو الذى تريد . .

وتنازعت الهيئات الدينية والصهيونية سياسة التعليم فى المدارس والمعاهد . ولم تتفق على شىء وظل الطلبة وأولياء الأمور حيارى لا يعرفون لهم رأساً أو رئيساً أو وجهة يستريحون فى السير إليها .

ولكن اليهود وقفوا أمام هذه المدارس ببرامج واضحة الاختلاف . فالوكالة اليهودية الصهيونية ترى أن التربية القومية هى أساس كل علم . وأن اليهودى يجب أن يعرف أنه كذلك . . وأنه يجب أن يبقى يهودياً . . ليواجه يهود العالم « القومية العربية » والوحدة العربية . . بالوحدة اليهودية والقومية اليهودية ـ أى الصهيونية . ولابد من أن يدرس

المواطن اليهودى دينه . ولكن الدين يجئ فى المرتبة الثانية بعد القومية والوطنية والتعصب الشديد لها والموت فى سبيلها . .

* * *

أما المذاهب الدينية فترى أن الدين أولاً وأخيراً ومن خلال الكتب المقدسة يستنتج الإنسان ما ينفعه فى دنياه . فلا التوراة كانت عبثاً . ولا موسى عندما خرج وهرب وعاد وصعد ليكلم ربه وعندما هبط بالوصايا العشر . كل ذلك لم يكن نشاطاً وحماساً من موسى فقط . . وإنما هو « تكليف » سماوى بأن يقود شعبه من الضلال إلى اليقين . ومن مصر إلى أرض الميعاد . . هذا هو الأساس الواضح لكل حياة يهودية . ولذلك فالتوراة والتلمود والمشنا والجماره كتب مقدسة باقية وفى بقائها بقاء للشعب اليهودى .

أما حزب العمال وغيره من الأحزاب اللا دينية فترى أن المواطن اليهودى يجب أن يتسلح بالعلم . وألا يكتفى بالعلم النظرى وإنما يجب أن يكتسب براعات يدوية . فاليهود لم تكن لهم أرض ولذلك لم يعرفوا الزراعة . فمن الواجب أن يزرعوا وأن يعملوا بأيديهم . . ليرتبطوا بالأرض ويحرصوا عليها ويضاعفوها ويدافعوا عنها . . وأن يتساوى الرجال والنساء فى العلم والعمل . وأن تضيق المسافات بين كل المذاهب عن طريق العمل اليدوى . وأن ينتظم العمال فى نقابات لا فى مذاهب دينية . . ولا مانع من أن يهتم الطلبة الصغار بالدين بعض الاهتمام وليس كل الاهتمام . فإن رجال الدين لم يصلوا « بالديانة » إلى إسرائيل وإنما كانوا فى مقدمة المهاجرين وعند مؤخرتهم . . ولكن الزحف المتوالى كان للساسة والعمال .. أو للعمال السياسيين . . ولذلك يجب أن يكون المواطن اليهودى عاملاً سياسياً !

ولابد أن تكون هناك اتجاهات متطرفة . فاليهود متطرفون يعيشون على التوافق بين الأطراف . . فهناك الأحزاب الدينية التى تنصر قيام الدولة من أولها لآخرها ـ كما أشرت إلى ذلك من قبل ـ لأن قيام الدولة هو تدخل فى إرادة السماء . وكان من الواجب أن يبقى اليهود مبعثرين فى كل أرض حتى يجئ المسيح المنتظر وينقذ أغنامه الضالة ويقودها إلى أرض الميعاد ـ وليس من الضرورى أن تكون هذه الأرض هى فلسطين .

واستمرت المعارك بين الأحزاب من أجل أن يكون هناك لحن واحد يردده كل الطلبة من كل لون وعقيدة . وكان لابد أن تجد الحكومات المتوالية حلاً فى الإشراف ، أو فى شكل من الإشراف على المدارس . ووجدت الحل ، ووجدت المذاهب حلاً آخر . . فالدولة قد وضعت البرامج العامة للتعليم . والمذاهب الدينية والسياسية قد أضافت من عندها جرعات من السياسة والدين . . وكانت الدولة لها إشراف على كل المدارس فيما عدا الجامعة العبرية بالقدس والكلية الفنية فى حيفا .

وتجددت المشاكل كلها مرة فى داخل المستعمرات - القيبوتس - فهذه المستعمرات تتبع الأحزاب السياسية والدينية . توجهها وتنفق عليها أو توجهها لأنها تنفق عليها وعادت الفوضى مرة أخرى . ولكن هذه المستعمرات لا تستطيع أن تعول نفسها . . ولذلك كانت تطلب المعونة من الدولة . وكل معونة مشروطة وشروط الدولة هى ألا ينفرد حزب بتوجيه المستعمرات على النحو الذى يريد . ولما كانت كل حكومات إسرائيل إئتلافية من كل الأحزاب ، فلم يستطع حزب أن ينفرد بالتوجيه العام للمستعمرات . وكانت هذه المستعمرات نموذجاً ناجحاً لفشل اللامركزية . فهذه المستعمرات تتبع الأحزاب المختلفة . . فليس لها برنامج واحد . ولا هدف واحد . والذى تحاوله الأحزاب يحاول الجيش أن يحطمه بأن يجذب الناس بالقوة والقسوة . فالمواطن الإسرائيلى ممزق بين الحياة من أجل حزبه وبين حياة الجيش الذى يجب أن يتجاهل كل حزب .

وفى سنة ١٩٤٩ صدر قانون التعليم الإجبارى على كل مواطن . وأصبح من حق وزير التربية والتعليم أن يستثنى بعض الحالات التى لا ترى ضرورة التعليم فى مدارس لا دينية . أو أبناء الطائفة التى تنكر قيام الدولة ولا ترى أن تشاركها فى أى شىء .

ولكن أعنف صورة من صور الصراع بين الأحزاب كان فى نفس هذه السنة أيضاً . أما المشكلة فهى : ما الذى يتعلمه اللاجئون الجدد فى الخيام - « عبروت » . . ؟ لقد دخل إسرائيل فى هذا العام ٢٣٩ ألف لاجىء . أكثرهم من آسيا وأفريقيا . وأكثرهم متدينون . ومعهم أطفال فى سن الدراسة . ومن بين هؤلاء المهاجرين خمسون ألفاً من اليمن نقلوهم بالطائرات فى العملية المعروفة باسم « البساط السحرى » - وهى قصة يتندر بها اليهود .

وهناك وجه آخر لهذه المشكلة : فهذا العدد الكبير من اليهود قوة سياسية أو سوف

تصبح قوة سياسية . ولذلك لا يمكن للأحزاب السياسية أن تتجاهلها أو تتفرج على الأحزاب الدينية وهى تلتهم هؤلاء الناخبين ، دون أن تتقدم بشيء . وتقدمت الأحزاب السياسية بضرورة أن يترك هؤلاء المهاجرون يختارون الأسلوب الذى يتعلمون به . وكان هذا الاقتراح مضحكاً . فإن أكثر هؤلاء المهاجرين لا يفهمون معنى لما يقال . إنهم يهود مهاجرون إلى أرض قيل إنها مقدسة . وهذا واضح من أنهم عندما هبطوا إلى مطار اللد ، راحوا يقبلون الأرض ويضعون التراب على رؤوسهم ويتمرغون على المطار ويبكون وكان ضحك الناس عليهم أكبر دليل على الفارق الهائل بينهم وبين الذين سبقوهم بالهجرة . .

ولم تتفق الأحزاب وهددت الوزارة بالسقوط . وتأزم الموقف واستقال بن جوريون وسبقه إلى ذلك ثلاثة من الوزراء متهمين الحكومة بأنها ترغم الناس على دراسة مالا يريدون .

وتركزت كل المعارك فى سنة ١٩٥٠ حول أبناء اليمن وهى « الخامة الأولية لمواطن يمكن تشكيله على النحو الذى تريد . والذى يريد هو . وهو لا يريد إلا أن يكون يهودياً مؤمناً بلا خوف من أحد » ـ كما تقول الجبهة الدينية المتحدة .

وتشكلت لجنة لتقصى الحقائق . ورأت إقامة « عبروت » ـ أى مستعمرات مؤقتة ، لتأهيل المهاجر لأن يكون مواطناً جديداً . ولذلك يجب أن تعلمه الدولة كل ما تستطيع حتى يكون يهودياً مؤمناً . وأصر بن جوريون على الاستقالة لأن هذه الخلافات تؤدى إلى تمزيق الدولة فى الوقت الذى يتحد حولها أعداؤها من العرب . .

ونشر الأدباء اليهود قصصاً عن اليمنيين مضحكة . ولابد أن يكون هؤلاء الأدباء من الأحزاب الأخرى . بل إن هذه القصص المضحكة قد نشرت فى كتب بيعت فى أسواق عالمية . من بين هذه القصص أن أحد اليهود اليمنيين طلب عند وصوله إلى مطار اللد ، إن كان الملك سليمان فى قصره . . وطلب آخر إن كان أشعياء قد عاد ليلتقى المهاجرين إلى أرضه . . وواحد يمنى فقط هو الذى قرر أن يعود إلى اليمن أو إلى أى مكان لأنه اكتشف فجأة أن يوم رحيله إلى إسرائيل كان يوم سبت وهذا هو منتهى الكفر . وأنه يفضل أن يشنق كل أيام الأسبوع على أن يبعث حياً يوم سبت !

ولكنها معركة على أصوات الناخبين.. وأكثر هؤلاء اليمنيين قد أعطوا أصواتهم للأحزاب الدينية . . فأكثر الأحزاب السياسية من البيض ، واليمنيون ملونون . . وأكثر الأحزاب

السياسية ملحدة . وهؤلاء اليمنيون مؤمنون . . ولذلك كانت موقعة الأصوات اليمنية تساوى ما بذلته الأحزاب الدينية من حبر ودم على أرض البرلمان وأمام حائط المبكى .

وفى سنة ١٩٥٣ صدر قانون يعطى لكل مواطن الحق فى أن يختار لابنه المدرسة التى تعجبه . وكانت النتائج الأولية لهذا الاختيار :

٤٠٪ اختاروا المدارس اللادينية .

٢٧٪ اختاروا المدارس العامة التى يتلقى فيها الطلبة دينهم ودنياهم بنسب معقولة . . .

٢٠٪ ذهبوا إلى المدارس الدينية.

١٣٪ اختاروا المدارس الدينية المتطرفة والتى تنكر قيام الدولة بكل هيئاتها ، وترى أن إسرائيل هى أكبر زندقة ابتدعها الملحدون الروس وصدقها رجال الدين الأمريكان والإنجليز .

* * *

وأصبح لزوير التربية والتعليم نائبان أحدهما حاخام وهو الذى يختار المفتشين على الشئون الدينية فى كل المدارس . وحاولت الدولة ولا تزال أن يكون لها سلطان على المستعمرات التى أنشأتها الأحزاب الدينية حتى يكون هناك نصيب من الدراسات القومية بين برامج التعليم . وهذه المحاولات لم تنته إلى نتيجة واضحة . فمن مشاكل الدولة : أن هناك نوعيتين صارختين من المستعمرات . مستعمرات تديرها الأحزاب الملحدة . وقد خرجت هذه المستعمرات ألوف الشبان الذين يجهلون التاريخ اليهودى . ويرون أن البكاء على الماضى لا معنى له . وأن من الأفضل أن يتجه الشبان إلى المستقبل . وأن من حقهم أن يعيشوا وأن يتزوجوا وأن يتفسحوا كما يفعل الأمريكان والألمان اليهود . وأنه لا معنى للحزن والبكاء على ما أصاب اليهود من مئات السنين وأن الحياة فى المستعمرات هى نوع من العثور على جريمة لم يرتكبوها .

فكأن هذه المستعمرات قد علمتهم كيف يكفرون بها . ويتعاونون على هدمها . ونوع آخر من الشباب المتهوس دينياً . . وهذا الهوس الدينى قد جعله يكره كل شىء ويكره أن يكون يهودياً . ويكره أن ينعم بأى شىء لأنه لم يصف حسابه مع كل الشعوب الأخرى . . وأنه يجب أن يحمل سلاحه ويطالب بدم كل الذين ماتوا وأحرقوا فى روسيا وبولندا

وألمانيا وأسپانيا .. وأن الثأر والاحتقار والغضب هي أشرف مشاعر الإنسان . وأن الإسرائيلي يجب أن يحمل سلاحه وأن ينفخ في البوق إعلاناً لحرب لا تنتهي . وأن هذا الشباب يجب أن يقاوم كل نزعات الإنحلال الموجودة في إسرائيل نفسها. وألا يجلس مع يهودي لا يحمل سلاحاً ولا ينفخ في بوق لكل صغيرة وكبيرة . وأن الرب قد خلق عيني الإنسان ليبكي ، ووسع صدره ليغضب ، وخلق يديه ليقتل .

وكل ما تحاوله الأحزاب في إسرائيل وهي كثيرة وتتكاثر هو كيف يمكن أن يكون لحن واحد لكل الناس وأن يكون له مضمون واحد هو : من الذي نقتله ؟ هل نقتل أنفسنا أو نقتل غيرنا . . يجب أن نتفق على من هو القاتل ومن هو القتيل . وهذا هو أساس التربية الإسرائيلية في كل مدارس الدين والدنيا !

دماء على الباخرة شالوم

لن تنتهى معارك رجال الدين . صحيح لهم إشراف على كثير من الهيئات . ولكنهم يطلبون المزيد من التدخل فى الحياة المدنية العامة لكل الناس . وأقوى معاركهم وأعنفها هى معركة الباخرة « شالوم » . هذه باخرة ركاب ومن مفاخر البحرية والسياحة الإسرائيلية وهى كأرض إسرائيلية يجب أن يجرى عليها ما يجرى على أية مدينة أو سفارة لإسرائيل . .

بدأت المعركة بأن أعلنت شركة « زيم » التى تمتلك هذه الباخرة بأنه من الضرورى أن يكون بها مطبخان أو نوعان من الطعام . الطعام الحلال لليهود . والطعام الحرام لغيرهم . فى المطبخ المحرم يقدمون لحم الخنزير للمسيحين . أما المطبخ الحلال فهو الذى يراعون فيه كل الطقوس اليهودية .

وقبل أن ندخل فى هذه المعركة لابد أن نوضح ما هو بالضبط « الحلال »

أى الكوشير ـ وما هو الحرام من الطعام . فاليهود لهم طقوس صعبة جداً وشديدة التعقيد ولابد من اتباعها . أما لماذا فرض اليهود على أنفسهم كل هذه الحدود والقيود فى الطعام والشراب فسبب ذلك أنهم يعتقدون أنهم شعب مقدس . ولذلك يجب أن يمتازوا عن الناس ، مهما كلفهم ذلك أو أن الشعب اليهودى كما وصفتهم التوراة « غلاظ

الرقاب » أى لا يلينون بسهولة . . ولذلك لابد من الضغط عليهم وربطهم بالحديد . أى مواجهة أعناقهم الغليظة بقيود أشد غلظة .

مثلا : لا يمكن أن يأكلوا الفواكه إذا قطفت من الشجرة . لابد لها من قواعد . ولا يأكلون من الشجرة التى أثمرت لأول مرة . حتى البذور الى وضعت فى الأرض بغير الطريقة الشرعية مع الصلوات عليها . فإن فاكهها حرام .

وكذلك الأطباق والحلل والسكاكين والملاعق لابد من غسلها مع الصلاة عليها . فإذا كانت هذه الأدوات قد اشتريت من يهودى ، واليهودى اشتراها من مسيحى أو مسلم فلابد من غسلها والصلاة عليها .

أما اللحوم فهى مشكلة المشاكل عند اليهود . ولابد من الذبح بطريقة خاصة ولابد من سكين من نوع معين . ثم إن ذبح الحيوانات لابد أن تجرى السكين على العنق مرة واحدة وفى اتجاه واحد . ولابد أن يوضع اللحم فى الماء حتى يمتص الدم . وبعد ذلك لابد من غليه فى الماء . ولا يطبخ اللحم واللبن معاً . هذا حرام . ولا يأكلها أحد معاً . ولا يأكلون الدهن مطلقاً . **وفى ذلك يقول موسى بن ميمون فى كتاب « دلالة الحائرين » : الدم والدهن لله ـ فلا يأكلها الإنسان . .**

والدم بكل صورة ممنوع فيا عدا دم السمك . ولا يأكلون عروق فخذ الحيوانات . وسبب ذلك أن يعقوب فى صراعه قد أصبح أعرج !

وكل لحم يلمسه إنسان كافر ، حتى لو كان يهودياً فهو حرام . فقط رجال الدين هم وحدهم الذين يلمسون اللحم . وهم الذين يذبحون . وهم الذين يطبخون اللحم .

وإذا اشترى اليهودى خبزاً من شخص غير يهودى فهو حرام إلا إذا كان الذى خبزه فى الفرن رجل يهودى !

ومن الممكن أن يكون فى البيت طباخ ليس يهودياً . ممكن . ولكن يجب على صاحبة البيت أن تدخل المطبخ من حين لآخر . . وتذوق الطعام . وتنقل الملعقة من فمها إلى كل إناء . . وأن تقرأ بعض الآيات .

واللبن والجبن وأى طعام إذا اشتراه اليهودى من رجل ليس يهودياً حرام ، لأن هذا

الرجل لم يراع الطقوس اليهودية فى إعداد اللبن أو الجبن .

واللحم والسمك حرام أن يأكلهما اليهودى معاً . فعند اليهود اعتقاد أن السمك واللحم يؤديان إلى البرص .

وتقول التوارة إن الإنسان قد خلق ليأكل النباتات والفواكه فقط . (سفر التكوين : الأصحاح الأول : الآية ١٩) . ولكن حدث بعد الطوفان أن توافرت الحيوانات وسمح لهم الرب بأكل اللحوم بشرط أن يمتنعوا عن الدم . (سفر التكوين : الأصحاح التاسع : الآية ٣) .

* * *

وهناك شروط أخرى كثيرة لكي يكون الطعام حلالاً . وعلى الباخرة شالوم وغيرها من الممتلكات الحكومية يجب أن تراى ذلك .

وقد أصرت شركة الملاحة الإسرائيلية على تزويد الباخرة بمطعمين إحداهما دولى والآخر يهودى . وبذلك تستطيع الشركة أن تنافس الشركات الأخرى العالمية . وحتى لا يهرب منها السياح والمسافرين المسيحيون . ووعدت الشركة بأن تراعى كل الشروط الدينيةْ فى المطبخ اليهودى . وطلبت إلى الهيئات الدينية أن تشرف على المطبخ اليهودى .

ولكن الهيئات الدينية فى إسرائيل اعترضت . وأعلنت أنه لابد من تطبيق القوانين الشرعية على الباخرة لأنها من ممتلكات الدولة . وأنه ممنوع منعاً باتاً تقديم أى طعام حرام . وأن الشركة الملاحية يجب أن تنصاع لهذه الأوامر تماماً كما فعلت كل طائرات شركة العال التى تقدم الطعام اليهودى فقط . وقال الحاخام الأكبر : إن شركة زيم لن تخسر شيئاً إذا راعت دينها . فهى أرض إسرائيلية ونافذة ومجتمع وصورة حية متحركة للشعب الذى شرب المر ألوف السنين . ويجب أن يبدو أكثر الشعوب احتراماً لنفسه وتاريخه ودينه . . .

وهددت الهيئات الدينية بأن تسحب من الباخرة رخصة فتح مطعم يهودى وأن تسحب هذه الرخصة من كل المطاعم الموجودة فى سفن هذه الشركة .

ولجأت شركة الملاحة إلى حيلة . فقد طلبت ترخيصاً من أكبر الهيئات الدينية في أمريكا . ونشرت في الصحف أن الحاخام الأكبر في أمريكا وافق على أن يسمح للباخرة بمطبخين . ولكن الحاخام الأكبر في إسرائيل هدد بقطع كل صلة بيهود أمريكا . ونشرت الصحف إعتذارا « كاملا » تقول فيه إنه لم يحدث أن وافق الحاخام على شيء من ذلك .

ولجأت الشركة إلى إعلان تطلب فيه : مطلوب رجل دين يشرف على المطبخ اليهودي في الباخرة شالوم .

وأعلن الحاخام الأكبر أن أي إنسان يقبل هذه الوظيفة سوف يجرده من دينه فوراً .

وهدد الحاخام أمريكا بأن يحرم ركوب هذه السفينة وأية سفينة تابعة لها . . ويحرم ركوب طائرات العال إذا سارت وراء الشركة الملاحية . .

وطلبت الشركة أن تلتقي بالحاخام الأكبر .

ولم يقتنع طبعاً . وهدد الشركة بأنها إذا لم تعلن في مدة أسبوعين عن موقفها بوضوح فسوف يسحب ترخيصه لكل المطابخ الموجودة في سفنها .

ولجأت الشركة إلى وزير المواصلات لعله يتوسط بينها وبين الحاخام الأكبر . . ثم عادت فطلبت إلى وزير الشئون الدينية أن يعينها على رجال الدين ولجأت الشركة إلى المحكمة العليا معتمدة على حرية الاعتقاد التي وردت في إعلان الاستقلال . وقالت الشركة : **إن الناس في إسرائيل قد ضاقوا بهذه القيود . وإن رجال الدين قد أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس . . وأنه ليس من المعقول أن تتحول باخرة غالية الثمن وجميلة إلى « حارة يهود » عائمة !**

وأخيراً انتهوا إلى حل معقول وهو أن الباخرة إذا كانت متجهة إلى إسرائيل فالمطبخ اليهودي هو الذي يقدم طعامه . وإذا كانت في رحلات دولية فالمطبخ العادي هو الذي يقدم طعامه . ولكن رجال الدين لم يوافقوا على ذلك . وهدد الحاخام بسحب تراخيص الطعام الحلال في كل سفن شركة زيم .

وفي سنة ١٩٦٧ حلت شركة زيم مشكلة هذه السفينة بأن باعتها إلى شركة ألمانية غربية . فقد كانت سفينة فادحة التكاليف !

وفى سنة ١٩٦٨ ضاعفت الهيئات الدينية تشددها . وهددت أصحاب المطاعم بتحطيم النوافذ والأبواب إن فتحت أبوابها أو قدمت طعاماً يوم السبت من كل أسبوع . وصرخ أصحاب الفنادق والمطاعم . ولكن خفف رجال الدين قبضتهم على الفنادق والمطاعم لأسباب سياحية . . وأصرت الهيئات الدينية على أن يتوارى الناس أثناء الطعام ابتداء من غروب الشمس يوم الجمعة حتى غروب الشمس يوم السبت . .

ومن المؤكد أن رجال الدين يتلاعبون فى المطاعم والفنادق ، ويحاولون أن يتسللوا باسم الدين إلى حياة الناس . . وذلك بأن يكون لهم رجال يعملون . . وآخرون يشاركون . وغيرهم يفتشون . .

* * *

وأما المعركة الثانية لرجال الدين فكانت موقعة « سلخانة المربك » .

وقد بدأت هذه المشكلة سنة ١٩٦٤ . . فنى هذا العام اكتمل هذا المذبح الآلى . وقد اشتركت عدة مستعمرات فى بنائه واستثماره . ومن بينها مستعمرات دينية متطرفة . ولكن وزارة الشئون الدينية لم تصرح لهذه السلخانة بأن تعمل إلا إذا أشرفت تماماً على بيعها أيضاً .

غير أن السلخانة أعلنت أنه يكفى جداً أن تراعى الطقوس الدينية أثناء الذبح . لأنه من الممكن أن تصبح هذه اللحوم حراماً بمجرد خروجها من السلخانة كأن يمسها مسيحى أو مسلم . وقال مجلس إدارة السلخانة إن هذا التشدد من من وزارة الشئون الدينية لم يعد له ما يبرره الآن . فقد كان شرط الإشراف على البيع والطبخ ضرورياً أيام كان اليهود فى الضياع . . أما الآن فاليهود معاً . . يذبحون معاً . . ويبيعون لبعضهم البعض فلا خوف من تسلل مسيحى أو مسلم بينهم .

ثم قالت السلخانة إن وزارة الشئون الدينية تعارض فى أن يكون للسلخانة الجديدة أى نشاط لأن الوزارة لها سلخانة أخرى تنافسها . وإن هذه السلخانة تتبع بلدية تل أبيب . فوزارة الشئون الدينية لها مصلحة مباشرة فى تعطيل سلخانة المربك هذه ، فسبب الاعتراض اقتصادى بحت وليس دينياً . وردت الوزارة بأن عندها أسباباً دينية واضحة وهى أنه يتحتم الإشراف التام على اللحوم أثناء الذبح وأثناء التوزيع وعند البيع .

وأعلنت السلخانة أنها لا تريد أن يتدخل أحد فى شئونها . لأنهـا قد اتفقت مع هيئات دينية أن تشرف على كل شيء وأن تراعي تعاليم الدين بمنتهى الدقة .

وانتهـى الخـلاف عندما أعلن الحـاخام الأكبر تشكيل هيئة تشرف على الذبح وعلى التسويق وعلى البيع . .

ولكن كان لابد للسلخانة أن تطبق تحفظاً هاماً وهو أن يبيع اللحـم الحـلال للجـزارين الحلال ـ أى المرخص لهم ببيعه . ولجأت السلخانة إلى واحد من جماعة « حراس المدينة » المتعصبين جداً بالإشراف على السـلخانة . ولكن الحـاخام الأكبر هدد بسـحب رخصـة السلخانة وتحريم كل ما يخرج منها .

وذهب مجلس إدارة السلخانة إلى المحكمة العليا . ولكن المحكمة العليا دفعت بأن مثل هذه القضايا الشرعية ليست من اختصاصها ، وأنه أفضل للشركة صاحبة السـلخانة أن تتفق مع الحاخام الأكبر .

وفى أغسـطس ١٩٦٤ اسـتسلمت السـلخانة لكل مطالب الحـاخام الأكبر ، وأشرف رجال الدين تماماً على اللحوم حية وميتة !

* * *

وفى سنة ١٩٥٣ ثار رجـال الدين على قانون التشريح ـ أو القـانون المعـروف باسـم قانون « علم أمراض وتشريح الجثث » فقد اعتادت المسـتشفيات الإسرائيلية على تشريح جثث الموتى دون موافقـة أهل المتوفى . . ودون تصريح من الشـخص قبل وفاته . أو دون أن يكون هناك سبب واضـح من فائدة عامة أو دون أن يكون هناك خـوف على الصـحة العامة .

وتقرر تعـديل هذا القـانون وكان الشرط الأسـاسى ألا يقـوم الأطباء بتشريح أية جثة دون أن يوقع ثلاثة من الأطباء على قرار تشريح الجثة ـ فلا ينفـرد طبيب بتشريح أية جثة !

وأدخل تعديل على القـانون سـنة ١٩٥٥ . . وكان الشرط لتشريح جثة أن يكون ذلك من أجل الصالح العام .

وفى خارج إسرائيل نشرت جمعية اسمها « جمعية كرامة الإنسان فى إسرائيل » بياناً فى النيويورك تيمس بعنوان : لا تشرحوا الموتى ! . وجاء فى البيان أن المستشفيات تشرح الموتى بالجملة . مع أن الدين ينص على ضرورة دفن الميت وعدم المساس بجسمه . . وجاء **فى البيان أنه لا يحدث فى أى بلد فى العالم ما يحدث فى إسرائيل من وحشية . ففى إسرائيل هيئات علمية تتولى تشريح هذه الجثث وتشتريها . وهناك سوق رائجة للحوم البشر . . وأكد البيان بأدلة ووثائق دامغة أن نسبة تشريح الموتى فى كل مستشفيات إسرائيل تصل إلى ٨٠٪ بما فى ذلك مستشفى « هداسة »** بالقدس . على الرغم من أن الكثيرين من المرضى يطلبون من المستشفيات تعهداً بتسليم جثثهم فى حالة الوفاة إلى أهليهم . وكانت المستشفيات تفعل ذلك .

وفى ٧ يونية سنة ١٩٦١ أصدرت وزارة الصحة قراراً بإلغاء هذا التعهد . وأن أى مريض يصر على هذا التعهد يجب طرده من المستشفى فوراً .

ولم تفلح الدولة فى أن تمنع الأطباء من تشريح جثث الموتى . واستمر ذلك حتى الآن .

والعجيب أن عدداً من الحاخامات الأمريكان المقيمين فى إسرائيل طلبوا من أمريكا حمايتهم من التشريح بعد الوفاة .

وقامت المظاهرات فى كل مكان ونفخوا فى الأبواق عند حائط المبكى ، وبكوا وعلقوا الصور للأطباء الوحوش مصاصى الدماء .

ولما اشتعلت حرب ٦٧ أوقفت هذه الحملة ، لاعتبارات تتعلق بالأمن العام . . ولكن هل الموتى عادوا يثورون من جديد على الأطباء ووزارة الشئون الدينية !

طائرة تقودها سيدة حامل: أكذوبة!

عبارة مشهورة فى إسرائيل: شعب له دين أصبح له جيش.. أو شعب له ماض، فأصبح له مستقبل. ومستقبله فى حاجة إلى جيش يحميه. ولكن، ككل شىء فى إسرائيل، لا اتفاق تاماً على هذه العبارة أو على معناها أو على ضرورة استخدامها. فالدين هو الذى ظل يحمى اليهود مئات السنين ـ هم يقولون ذلك ـ ولكن الدين فى حاجة الآن إلى حماية من نوع خاص. فالجيش هو الذى يحمى للدولة دينها ودنياها.

ولكن الأحزاب الدينية تعترض على مثل هذه العبارات التى تجعل شيئاً أهم من الدين. ولذلك فهناك أحزاب تحرم الالتحاق بالجيش وترى أن حمل السلاح كفر. ولكن لا يمكن إغفال أهمية الدولة والدفاع عنها بكل الطرق والحيل المشروعة وغيرها. فالأغلبية من الشعب ترى أن الجندية واجب على كل مواطن، وهناك شروط كثيرة. بعضها أمكن تحقيقه.

ففى أول دورة برلمانية كان الشعور العام أنه بغير الجيش لم تقم هذه الدولة.

وقيل أيضاً بغير دين لم يقم هذا الجيش الذى أقام هذه الدولة.

والمعنى أن الجيش والدين ضروريان. ولذلك فأهم المناصب الوزارية: وزارة الدفاع

ووزارة الشئون الدينية. ولكي يكون هناك إئتلاف شامل يجب أن يتعاون الوزيران معاً. على أن يكون التجنيد إجبارياً، وأن تكون تعاليم الدين مطبقة حرفياً. أما تعاليم الدين فتقوم على احترام الصلوات وأيام الصوم. وأن يمتنع الناس عن العمل والتدخين فى يوم السبت. لابد. وأن يمتنع الناس عن الطعام والحرام فى عيد الغفران. وألا يأكل الجنود الخنزير. وألا يأكلوا إلا بالطريقة الحلال ـ الكوشير ـ وأن يتولى ذلك كله واحد من رجال الدين. وأن يكون مع كل تشكيل عسكرى أياً كان عدده حاخام شاب وأن يزود كل جندى بنسخة من التوراة. وكتاب للصلوات. وأن يوضع فى كل دبابة وطيارة وغواصة وسيارة نسخة من التوراة. وأن يراعى الحاخام المرافق للجنود تعاليم الدين تماماً. فى الطعام والشراب والموت والدفن والصلاة على الميت أمام هيكل سليمان.. وكل وحدة عسكرية معها نموذج صغير للهيكل.. وكل حاخام معه بوق ينفخ فيه عند الصلاة أو إذا أراد أن يدعوهم أو يلفت نظرهم أو يثور عليهم.. هذه ضرورة لأن يكون هناك وفاق بين الأحزاب السياسية الملحدة والأحزاب الدينية.

وهناك إدارة دينية ملحقة بالوزارات هذه الإدارة لها ميزانيتها ولها مطابعها ولها صحفها. وهى التى تتولى طبع التوراة وتوزيعها. وتصديرها. وهى التى تقوم بإعداد الحاخامات وإرسالهم إلى القوات فى أقصى المواقع العسكرية وقد رأينا ذلك فى حرب أكتوبر عندما استسلمت لنا مجموعة كاملة وكان ضمنها حاخام صغير.

* * *

ولابد من مشكلة يختلف عليها اليهود.

وجاءت المشكلة بسرعة وهى: هل تجند المرأة فى الجيش؟

كل الأحزاب الدينية على اختلاف درجاتها فى التعصب اتفقت على أن تجنيد المرأة حرام. فالمرأة للبيت. والرجل للغيط أو الجيش.

ودارت مناقشات حادة تنتهى عادة بالتهديد بالإنسحاب من الوزارة واهتدى أحد السياسيين إلى حل سعيد هو: أن يقرر البرلمان أن التجنيد إجبارى على الرجل والمرأة. ثم يصدر إعفاء للمرأة من الجندية. لكن المبدأ يجب أن يتقرر. واعترضت الأحزاب السياسية لأن هذا معناه التمييز بين الرجل والمرأة.

واقترح آخرون أن المرأة المتدينة إذا رفضت الالتحاق بالجيش، فيجب تكليفها بعمل آخر فى الخطوط الخلفية للجيش.. واقترح جماعة من المعتدلين أن تقوم المرأة بأعمال غير عسكرية.. وكان مصير هذا الاقتراح الرفض أيضاً.

وكانت المناقشات العنيفة على سنوات عديدة. وكان من الطبيعى أن يقترح أحد أن تعمل المرأة فى المستشفيات أو الأعمال المكتبية. ووافق الجميع بشرط ألا يكون ذلك تطبيقاً لقرار تجنيد المرأة كالرجل تماماً.

وحاول بن جوريون أن يجد حلاً وسطاً ولكنه لم يستطع. وهدد بالإستقالة وباركت الأحزاب الدينية ذلك. ولكن الوزارة أرجأت النظر فى هذه القضية القاضية على كل إئتلاف وزارى.

وفى سنة ١٩٥١ تجددت المحاولات بالسماح للمرأة بأن تعمل فى المستعمرات أو المستشفيات أو المزارع أو المدارس أثناء الحرب أو الاستعداد للحرب. واعترضت الأحزاب الدينية على أساس أن إسرائيل فى حالة حرب دائمة. وأن هذا تطبيق للقانون الذى رفضته الأحزاب الدينية. وقال أحد الحاخامات: إننا ندور حول الشجرة مع أن المطلوب هو أن نقطعها. فليس فى حياة إسرائيل ما يجعلها تتنكر للدين. إن الكفر شامل وعام. ويجب ألا يكون الكفر والإلحاد والزندقة والإنحلال كاسحاً لكل ما تبق من الديانة اليهودية.

وأعلن الحاخام إسحق مائير أن تطبيق القانون الذى تطالب به الدولة حرام. وأنه يدعو إلى التمرد عليه. وأنه يفضل السجن والإعدام على تطبيق قانون الخدمة العسكرية للمرأة.

والحاخام الاكبر هدد بالإضراب عن الطعام، ودعا الناس جميعاً إلى الصيام والإمتناع عن العمل وأعلن أمام حائط المبكى: إننى أفضل أن تمتلىء سجون إسرائيل بالفتيات على أن ينفذ هذا القانون. فإلى السجن يا بنات إسرائيل!

أما حاخام جماعة «حراس المدينة» فطلب من جميع الفتيات أن ينتحرن وتحركت مظاهرات عدائية للدولة وقد أمسك المتظاهرون الحجارة والأسلحة والمواد الناسفة للبرلمان وأعلنوا الحرب المقدسة على «الملحدين الذين يدنسون الأرض المقدسة بأفكارهم

المنحلة المنحرفة والذين يريدون أن يهدموا ما تبقى من هيكل سليمان ».

وحاول بن جوريون يائساً أن يجد حلاً. ووجد الحل فى أن يسكت حتى تمر هذه العاصفة وسكتت العاصفة لتتجمع وتكون أعتى وأعنف بعد ذلك!

وادخلت تعديلات كثيرة على قانون الخدمة العسكرية. ومن أهم هذه التعديلات أن كل فتاة فى الثامنة عشرة حتى السادسة والعشرين غير متزوجة وأعفيت من الخدمة العسكرية لاعتبارات دينية، يجب أن تساهم فى الخدمة العامة. أى يجب أن تساهم بأى شىء من أجل الوطن. ولا أحد يعترض على أن يعمل أى مواطن أى شىء من أجل بلده. فالدولة فى حالة حرب. ولا يمكن أن يحارب أناس ويتفرج عليهم آخرون. أو يجب ألا يحارب الناس من أجل المتفرجين عليهم. فى أثناء الحرب لا أحد يتفرج على أحد.

وعلى الرغم من قدرة رجال الدين على هذا التعديل، فإن أحداً لا يستطيع أن يجد نصاً فى أى دين يدعو إلى السلبية المطلقة والجميع فى خطر.

وتدخلت الأحزاب الدينية لتقول لا مانع أن تقوم المرأة ـ أثناء الحرب ـ بأى عمل فى الخطوط الخلفية بشرط أن تتمكن من أداء كل شعائرها الدينية. ولابد أن تقوم الأحزاب الدينية بالإشراف على ذلك فترسل رجالها أو نساءها حتى يطبق الدين حرفياً مهما كانت الظروف.

ولكن الأحزاب الدينية المتطرفة اعترضت دائماً ـ ولا تزال تحرم على بناتها أن يعملن فى الجيش أو فى أى مصلحة لها علاقة بالحرب.

وعندما كتبت يائيل ديان ابنة موشى ديان روايتها الأولى « وجه جديد فى المرآة » تحدثت عن الحياة العسكرية. وعن حياة الفتاة فى الجيش. ولم يكن الدافع الحقيق لهذه الرواية أن تتحدث عن أمجاد الجيش وإنما كانت تسخر من الخدمة العسكرية. وعن حياة الفتاة فى ملحدة هى وأبوها وأمها وأخوها. فإنها لم تخف أن تجنيد الفتيات كان لهواً وعبثاً. وقد التقطت الأحزاب الدينية هذه الرواية دليلاً على فساد الخدمة العسكرية وعلى ضرورة إبعاد المرأة عن الجيش.

أما الفتيات اللاتى يعملن فى الجيش أو بالقرب منه أو فى أحضانه فإنهن متطوعات. ولكن الأغلبية الكبرى من بنات إسرائيل يرفضن العمل فى الجيش. لا لأسباب دينية

فقط ، وإنما لأن الحياة العسكرية شاقة . وأن المرأة لا تساعد كثيراً وإنما هى تعطل الحركة العسكرية الجافة السريعة . فالمرأة عبء على الجيش وليست عوناً له .

* * *

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ احتاج الجيش الإسرائيلى إلى موظفين إداريين . وكان لابد من ملء أماكن كثيرة شاغرة فى الحياة المدنية . كما أن الجيش الإسرائيلى كان يستدعى احتياطيه كثيراً . وكان على الدولة أن تواجه النقص فى مجالات الزراعة والصناعة والتعليم . وفى سنة ١٩٧١ صدر قرار بدعوة متطوعين للخدمة العامة . وتشكلت جماعات من الفتيات المتدينات اللاتى أعفين من التجنيد الإجبارى . وكان على الفتيات أن يقمن بشىء من الواجب نحو الدولة . وغضبت الأحزاب الدينية على هذا التحايل على الدين . وانتشر السخط العام . واحتشد الناس عند حائط المبكى . ونفخوا فى الأبواق وسالت الدموع واشفق الناس على إسرائيل من الخراب . وراحوا ينشدون : « يا أبانا يا ملكنا ، ارفع الشر عنا وغضبك!»

ولا يزال الشجار قائماً . ولم تحمل المرأة اليهودية سلاحاً حتى اليوم . . أما الصور التى ظهرت فى صحفهم وفى صحفنا فهى للدعاية السياحية فقط . . ونحن صدقنا ذلك أيضاً !

ومن المناسب هنا أن أحكى شيئاً غريباً عجيباً حدث أثناء حرب سنة ١٩٦٧ ففى يوم من الأيام اهتزت القاهرة . وقالوا : قطار من الأسرى وصل ـ أى أننا أسرنا هذا العدد الهائل من اليهود . بضعة ألوف من جنود العدو . .

وليس غريباً أن نأسر هذا العدد ما دمنا قد أسقطنا تلك الأعداد من الطائرات أول يوم ـ كما تقول الإذاعة والصحف من ورائها . أو كما قيل للجميع . أو كما تورط الجميع أو تبرعوا أو تطوعوا لأن يبالغوا فى انتصاراتنا وإنكساراتهم .

وبعد ذلك كبرت الشائعة وتحولت إلى شىء أروع فقيل إن القطار كله من المجندات الإسرائيليات . أى أن هناك مجندات . وأنهن يحاربن وأنهن كن فى الصفوف الأولى . وسقطن فى أيدينا . صحيح أنهن مجندات ولكن رجالنا ، على كل حال ، أقدر . وكأن الذى أطلق هذه الشائعة ، قد أخجله أن يكون لليهود مجندات ، ولا تقع المجندات فى

أيدينا . . ومعنى ذلك أيضاً أن المجد الذى أعطيناه لبنات أورشليم باليمين ، قد سحبناه بالشمال . .

وتتطورت الشائعة أو تهورت وقيل فى ذلك الوقت أن طائرة سقطت بالقرب من القاهرة . وهذه الطائرة فانتوم . وعندما انفجرت الطائرة هبطت إحدى المظلات وبالاقتراب من المظلة وجدوا أن التى تقودها سيدة حامل . . وأنها فى شهرها التاسع . وأن الإنسانية تحتم علينا أن ننقلها إلى مستشفى المعادى . وولدت وتركوا لها الحرية فى اختيار اسم المولود . ولكن الطيارة الإسرائيلية قالت : أنا وضعت مولوداً هذا صحيح . ولكن أرجو أن تختاروا له الاسم . فقالوا لها : أنت التى تختارين الاسم . قالت : أنتم تختارون الاسم . قالوا: لا بل أنت التى تختارين !

ويقال اختاروا له اسماً . .

نعود إلى أسطورة الطيارة هذه فنحن اخترنا أن تكون أول طائرة تقودها امرأة . ومجرد اختيار المرأة هو إمعان فى التعذيب لنا . أى أن اليهود يحاربوننا بالنساء . . بأرق وأضعف المخلوقات . كأن المصريين لا يستحقون أن يحاربهم الرجال .

وأعجب من ذلك أن الطيارة كانت حاملاً . أى أن الحمل لم يمنعها من أن تحارب وتقاتل وتتعرض للموت هى والذى فى بطنها ، ومعنى ذلك أنها كانت تعلم أنها لن تموت . ولم تمت لا هى ولا وليدها . . وأننا حاولنا أن نكون فوق الهزيمة وفوق مقتضيات الحرب فنقلناها إلى المستشفى لتضع ولم نكتف بذلك ، وإنما دخلنا معها فى نقاش فى اختيار الاسم . وكأنها أصبحت من ممتلكاتنا هى وابنها . وأن الذوق يحتم علينا ألا نجرح شعورها ونعطى لابنها اسماً إسلامياً ، فتركنا لها أن تختار . واختارت . .

ولو رجعنا إلى هذه النكت المؤلمة لوجدناها تنطوى على جهل فاضح . . فلا أحد قد رأى هذه الطيارة ولا حتى طيارينا . . ولا عرف إن كان يمكن أن يقودها أى رجل . بل إن لها طرازاً شاباً نحيفاً رشيقاً من الرجال المدربين جداً . وأن المرأة لا تقود الطيارات الحربية ، ولا تعمل فى الجيش . وأن المرأة الحامل يستحيل أن تتحرك إلى مدى مائة كيلو متر من الجبهة . وأنه يستحيل أن تقترب من طائرة أو تدخلها أو تحارب بها . .

وهذه الشائعات هى صور من تعذيبنا لأنفسنا واحتقارنا لها ، وأنه قد هان أمرنا على أنفسنا ، إلى هذه الدرجة الأليمة !

وحتى لا نعذب أنفسنا مرة أخرى : فإن المرأة الإسرائيلية لا تحارب ولن تحارب لا أرضاً ولا جواً . . وأن مشكلتها كمواطنة تريد أن تساعد بأى شىء بعيد عن الحرب ، ماتزال قضية لم يصلوا فيها إلى حل سعيد !

لم يتفقوا على من هو اليهودى ؟!

كلام كثير جميل قاله اليهود لليهود قبل أن يخطفوا أرض فلسطين ويجعلوها إسرائيل . وكان هذا الكلام الجميل ضرورة لاحتمالهم الهوان فى كل أرض . وعاش اليهود على الكلام الحلو يشربونه صباحاً ومساءً وينتظرون اليوم الموعود فى أرض الميعاد . .

قالوا لهم : إن اليهودى كاليمامة . . واليمامة مختلفة عن كل الطيور . . فالطيور إذا تعبت استراحت على فرع شجرة أو على قطعة حجر . . أما اليمامة فإنها إذا تعبت تظل تطير . . وإذا تعب جناح أراحته وطارت بالجناح الآخر . .

وقالوا لهم : إن اليهود هم رمال الأرض . . والرمال أطول عمراً من كل المعادن . . وبغير رمال الصحراء لا تقام بيوت . . وبغير تراب الوديان لا تنمو زروع . . واليهود رمال وتراب . . واليهود رمال كلما داسها الناس ازدادت لمعاناً . وإذا دخل الرمل فى طعام فإنه يجرح الأسنان ، وكذلك اليهود يجرحون الأسنان واللسان إذا أوجعتهم . . وهم كالرمال تتحرك من مكان إلى مكان فى صمت . . وهم يتحركون بلا شكوى . . وهم كالرمال إذا حفرت بها حفرة فى الصباح ، وعدت إليها فى الليل وجدتها قد امتلأت . .

وقالو لهم : اليهود كالورود . . إذا شممتها كانت لها رائحة جميلة ، وإذا عضضتها بأسنانك كانت مريرة .

وقالت لهم التوراة فى سفر الخروج (الأصحاح : ٣٢ الآية : ٩) : رأيت هذا الشعب .. إنه صلب الرقبة « وقال الحاخام يوحانان فى تفسير صلابة الرقبة أى أنه عنيد . ثم قال إن هناك أنواعاً من الصلابة : الكلب بين الحيوانات والديك بين الطيور ، واليهود بين الناس .. وقال الحاخام موشى : إن الرب لا يذم اليهود إنه يمدحهم .. فمعنى هذه الآية أن الإنسان لكى يكون يهودياً يجب أن يكون على استعداد دائم للاستشهاد !

* * *

أما الكاتب الأمريكى اليهودى لويس لويسون فيقول فى كتابه : « الجزيرة التى فى داخلنا » يحكى أن رجلاً ذهب إلى أحد أغنياء پولندا وسأله : ما رأيك فى اليهود فقال : خنازير قتلوا الأنبياء وصلبوا المسيح .. لا تثق بواحد منهم !

وسأله : وما رأيك فى إسحاق ؟

ـ ملاك طيب .

ـ وفى ليفى ؟

ـ أثق به أكثر من نفسى .

ـ وفى شالوم ؟

ـ لؤلؤة نادرة الوجود .

وذهب الرجل نفسه إلى غنى يهودى مؤمن وسأله : ما رأيك فى اليهود ؟ فقال : إنهم شعب الله المختار .. إنهم يحملون رسالة لإصلاح العالم كله .

وسأله : وما رأيك فى إسحاق ؟

ـ أحط إنسان !

ـ وفى ليفى ؟

ـ أحقر من رأيت .

ـ وفى شالوم ؟

ـ أسفلهم جميعاً !

ويقول الحاخام موشى تعليقاً على ذلك : كلاهما لا يعرف من هو اليهودى !

ثم يقول الحاخام هأرون برميزلانر إنه حدث أن ذهب حاخام كبير لزيارة إحدى المدن . وعرف الناس بنبأ الزيارة فوقفوا ينتظرونه فى الطريق . ولاحظ الحاخام ذلك ، فخلع ملابسه وارتدى ملابس سائق العربة الذى جاء به . . وأخذ الناس يحيون سائق العربة . وظل هو يتفرج على الناس . . ولكن حاخام المدينة كان ينظر إليه ويحييه . لقد عرفه . وسأله الناس كيف عرفت الحاخام رغم أنه غير ملابسه . فقال : **إن نصاباً لا يستطيع أن يخدع نصاباً مثله !**

انتهى الكلام وبدأ العمل عندما قامت إسرائيل . . وكان السؤال الذى يهز الجميع ويفزعهم ويدهشهم كيف أنهم لم يهتدوا إلى إجابة تقنع الجميع : من هو اليهودى !

* * *

إن قانون العودة لسنة ١٩٥٠ هو أساس العقيدة الصهيونية . . وهو ينص على أن إسرائيل قد أنشئت من أجل اليهود فى كل مكان . وأن العودة إلى صهيون حق مطلق لكل يهودى .

وهذا القانون هو استجابة عاطفية لليهود الذين تشردوا فى كل مكان ثم قرروا العودة إلى إسرائيل . فإسرائيل ملجأ لكل يهودى ما لم يكن مريضاً أو خطراً على أمنها . بل إن غير اليهود إذا أرادوا أن يقيموا فيها ، فهذا حقهم أيضاً . وبعد ذلك يكتسبون الجنسية اليهودية . . بلا قيد ولا شرط . .

ووضعت إسرائيل نظام البطاقات . . وأوجبت على كل إنسان أن ينص فى بطاقته على دينه وجنسه فيقول : الدين : يهودى والجنسية إسرائيلية .

وأصدر وزير الداخلية باريهوذا فى مارس سنة ١٩٥٨ قراراً يقول : كل شخص يعلن بصدق أنه يهودى ، فهو يهودى ويجب تسجيله فى البطاقة الشخصية على أنه كذلك .

واعترضت وزارة الشئون الدينية على ذلك . وكذلك الأحزاب الدينية كلها .

وأعلن الحاخام الأكبر أنه يعارض تماماً مثل هذا القرار لأن من اليهود فئة « حراس المدينة » يرون أن قيام الدولة باطل . . فكيف تحميهم الدولة ، بل كيف يعتبر أى أحد

يهودياً ؟ وقال : إن هذه الفئة ترفض أن يكون القانون قد نزل على موسى .

ولكن من هو اليهودى ؟

العرف العام يقول والتوراة أيضاً : اليهودى هو كل من كانت أمه يهودية . ويكون الطفل أيضاً يهودياً إذا أعلن أبواه ذلك . . حتى لو لم يكن هذا الطفل يعرف شيئاً عن دينه .

ولكن إذا أعلن الطفل بعد ذلك إنه ليس يهودياً فما هو حكم الشرع ؟ .

الأحزاب الدينية تقول : الأساس هو أن يعترف الإنسان بذلك . فإذا رفض أن يعترف بذلك ، فليس يهودياً .

ولكن أحزاباً أخرى تقول : اليهودى حتى إذا أخطأ فهو يهودى . فهو يهودى دائماً !

ولكن التفسيرات الشرعية للقانون اليهودى القديم تقول صراحة : كل يهودى هو من كانت أمه يهودية ، أو ولد يهودياً أو تحول من دين آخر إلى الديانة اليهودية . وليس كل من يعلن أنه يهودى . .

وتساءلوا : هل يمكن أن يكون الإنسان يهودى الجنسية ، وليس يهودى الدين ؟ هل من الممكن أن يكون إسرائيلياً وليس يهودياً !

مفروض أن إسرائيل لليهود فقط . . فالإسرائيلى هو اليهودى . . ولا إنفصال بين الجنسية وبين الديانة !

وفى الكنيست صرح الوزير شابير أوهو يقول : يا ناس . . لقد مضت علينا مئات السنين ونحن نعرف من هو اليهودى . . وما الذى يفعله اليهودى . . ومضى علينا الآن فى إسرائيل أكثر من عشر سنوات ولا نعرف أن نجيب على هذا السؤال : من هو اليهودى . . هل نسينا نحن العذاب والهوان فى كل أرض وكل عصر . . أليس فى هذا التاريخ ما يكفى لتعريف من هو اليهودى ! ؟

وكأنه لم يقل شيئاً . فقد خرج الناس من الكنيست وهم يتساءلون : صحيح . . من هو اليهودى ؟ . .

* * *

وحاول بن جوريون أن يتفادى أية أزمة اقتصادية ولذلك لم يبحث هذه القضية وإنما أرجأها بعض الوقت.. ولكن القضية ملحة.. وفى كل يوم يدخل البلاد واحد له مشكلة مع زوجته ومع أولاده. ويريد أن يعرف إن كان يهودياً..

وفى سنة ١٩٥٨ أرسل بن جوريون خطاباً إلى خمسة وأربعين من حكماء إسرائيل والعالم. وهم من العلماء والأدباء ورجال الدين والسياسة، يسألهم:

- دلونى يا ناس على من هو اليهودى؟

وقدموا له تقريراً أشاروا إلى ضرورة النظر إلى هذه القضية من عدة اعتبارات:

(١) أن إعلان الاستقلال قد كفل لليهود حرية العقيدة - أى أن يكون يهودياً يمارس الطقوس أو لا يفعل ذلك.

(٢) إن إسرائيل هى مركز للتجمع اليهودى دون تفرقة بين مذاهب اليهود وألوانهم وتاريخهم وأنهم من شعوب متحضرة وشعوب متخلفة. ويجب أن يتعاون الجميع على الذوبان فى إطار واحد..

(٣) وأن المجتمع اليهودى فى إسرائيل مختلف تماماً عن المجتمع اليهودى فى أى مكان. فلم يعد اليهودى تلك الأقلية المسحوقة ولم يعد خاضعاً للقهر من أحد. وكلمة «الذوبان» فى الشعوب الأخرى لم تعد شيئاً مخيفاً، بل من الواجب أن يذوب اليهود فى اليهود. وأن نترفق بالعائلات ذات الزواج المختلط كأن يتزوج اليهودى مسيحية، أو تتزوج اليهودية مسيحياً.

(٤) يجب ألا يبقى الشعب اليهودى فى إسرائيل منعزلاً عن اليهود فى بقية بلاد العالم. فلا إنفصال بين اليهودى الإسرائيلى واليهودى الأمريكى أو الروسى..

ولم تقتنع الأحزاب الدينية فى إسرائيل. حتى ظهرت مأساة الراهب المسيحى دانيال. هذا الراهب يهودى جاء إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة ويريد أن يحصل على الجنسية اليهودية. والتجأ إلى المحكمة اليهودية العليا فى نوفمبر ١٩٦٤.. وثارت من جديد أزمة اليهودى ومن هو اليهودى وبصورة عنيفة..

وهذا الراهب دانيال قد ولد فى بولندا سنة ١٩٢٢ وكان اسمه أوزفالد روفايسن. أبواه

يهوديان . وكانت تربيته يهودية . وكان له نشاط صهيونى معروف . وفى أثناء الدراسة الثانوية تعلم وتدرب على الهرب حتى يهاجر إلى فلسطين فى يونيو سنة ١٩٤١ الجستابو اعتقله . واستطاع أن يهرب وحصل على جواز سفر مزور على أنه ألمانى مسيحى . ثم عمل مترجماً للبوليس الألمانى . واستطاع عن طريق هذه الوظيفة أن يساعد مئات اليهود على الهرب عندما قرر هتلر هدم حارة اليهود فى وارسو . ولكن أحد اليهود قد أفشى سره . واعتقله النازى وأدخلوه السجن . فهرب واختفى فى أحد الأديرة . وفى سنة ١٩٤٢ اعتنق الديانة المسيحية . وفى ١٩٤٥ انتهت الحرب . ولكنه كان قد أصبح قسيساً . وطلب من الكنيسة أن تسمح له بالسفر إلى إسرائيل . . وسافر إلى إسرائيل سنة ١٩٥٨ . . وهناك طلب أن يكون يهودياً . . واعترضت الهيئات الدينية . وكذلك المحكمة العليا . وتقدم لوزير الداخلية يقول إنه يهودى الأصل . . ورفض الوزير . وأعلنت المحكمة أن اليهودى إذا تحول إلى المسيحية لا يكون يهودياً . ولما قال : إنها الظروف الخاصة بكل يهود العالم . وإنه لجأ إلى المسيحية ، ولم يعتنقها . . قال رجال الدين : كذاب . . يهودى كذاب . . يهودى يهاجم اليهودية باسم المسيحية ليس يهودياً . . وقالت المحكمة : إن الراهب دانيال يريد منا أن نمحو كل ما فعله المسيحيون باليهود فى مئات السنين إن هذا مستحيل !

ولكن فى سنة ١٩٦٣ منحوه الجنسية اليهودية !

* * *

ثم جاءت قصة السيدة رينا عيتانى سنة ١٩٤٦ . هذه السيدة ألمانية الأصل . وأمها مسيحية وأبوها پولندى . . أبوها قتله النازيون . . وعاشت هى وأمها وأختها فى حارة اليهود فى وارسو . ثم انتقلت إلى أحد المعسكرات التى أعدها الإنجليز لليهود فى قبرص . ثم وصلت إسرائيل سنة ١٩٤٧ ضمن هجرة السنين الأولى . . وسجلت على أنها يهودية . وعملت فى الجيش الإسرائيلى . واعتبرت نفسها يهودية . وربت أطفالها على أنهم يهود . وفى سنة ١٩٥٢ منحت الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة . .

وفى سنة ١٩٦١ حصلت على جواز سفر إسرائيلى وتسلمته . وتجدد هذا الجواز فى سنة ١٩٦٤ . ورشحت نفسها فى الانتخابات فى مدينة الناصرة . . ولكن بعض خصومها السياسيين نبشوا ماضيها . وأعلنوا أنها ليست يهودية وأن لديهم الدليل على ذلك . وطلبت وزارة الداخلية أن تعيد إليها كل أوراقها فوراً . والتجأت السيدة عيتانى إلى القضاء .

وفى مارس سنة ١٩٦٦ أعلنت وزارة الداخلية صحة جواز سفرها على أساس أنه ليس من حق أى إنسان أن يجرد آخر من حق اكتسبه، ما دام لم يستخدم هذا الحق فى الإساءة إلى أحد!

ثم حكاية المقدم بنيامين شاليت. وهو رجل يهودى ولد فى حيفا وتزوج من فتاة مسيحية من أصل فرنسى اسكتلندى. وهو وزوجته ملحدان. ويعترفان بذلك. وقد ولد لهما طفل اسمه هارون سنة ١٩٦٤. واعترف الأب أن ابنه يهودى الجنسية ولكن ليس له دين حتى الآن، وأنه يترك له ذلك حتى يكبر فيختار الدين الذى يناسبه. ولكن سجلات وزارة الداخلية يجب أن ينص فيها على الدين. إما أن يكون يهودياً أو لا يكون. ورفض الأب أن يكتب أن ابنه يهودى. ولكن موظف السجلات ملأ الخانة بكلمة يهودى.. واعترض الأب والأم.

وفى سنة ١٩٦٧ ولدت له طفلة اسماها جاليا. ورفض الأب مرة أخرى أن ينص على أنها يهودية الدين.. ولكن وزارة الداخلية رفضت هذه الأوراق.

وتقدم للمحكمة. وأصدرت المحكمة قرارها بأن الطفلين يهوديان حتى إذا لم يشأ الأب أن يكتب ذلك بيده..

وهناك عبارة مشهورة للفيلسوف الوجودى سارتر، وهو أحد العاطفين جداً على اليهود واليهودية. لأنه نصف يهودى، يقول: إن الإنسان لا يكون يهودياً، وإنما الناس هم الذين يجعلونه كذلك.. يحولونه إلى ذلك. ينظر إلى نفسه بعيون الناس.. ويكون بالضبط كما يريدون..

ولكن هذه العبارة ليس لها معنى فى إسرائيل وهم يعيشون معاً ولا يطيقون بعضهم البعض. ولا يزالون يتساءلون:

هل نحن يهود بين يهود من أجل يهود آخرين فى العالم؟

كيف تطهو يهوديًا على نار هادئة؟

اقتربت السيدة العجوز من النافذة وسحبت الستائر ولكن الشمس لم تدخل، فهى الأخرى قد اخفتها ستائر من السحب الكثيفة ومن ورائها جبال الألب الشامخة. وقالت العجوز: ليس فى نية أحد أن ينهى شيئاً. فما هو الحل؟

ولم يكن فى الغرفة أحد يرد عليها.. وكانت السيدة العجوز قد اعتادت أن تتحدث إلى نفسها كثيراً. ولذلك مضت تقول: مضى يومان.. وسوف تمضى مئات الأيام.. دون أن أجد رداً واحداً يقنعنى.. إن اسم عائلتنا العريق سوف يموت هذه الليلة ابنى سوف يتزوج واحدة مسيحية من أصل يهودى.. وسوف يجىء أبناء يحملون اسم العائلة.. هذا الاسم الذى حملناه سراً.. حملناه وسط النار واحترقنا ولم يحترق.. وعبرنا به البحار وغرقنا ولم يغرق.. ودخلنا به الكنائس وظل يهودياً.. وصلينا به فى مساجد النجف وكربلاء والأزهر وبقى يهودياً.. ركعنا ولم يركع.. سجدنا ولم يسجد.. أسلمنا ولم يسلم.. هذا الاسم سينتهى الليلة عند أول قبلة لابنى يضعها على هذه السمراء المسيحية.. ومطلوب من أى إنسان أن يفرح فى هذه الليلة الفريدة فى عمر الشباب.. إننى لا أستطيع»

* * *

وأعادت الستائر وأظلمت الغرفة وهى تقول : يجب ألا تطلع الشمس هذا اليوم والأيام التالية !

وانفتح باب الغرفة وأضيئت الأنوار ورأت العجوز ابنها وعروسه . . وألقت بنفسها على صدره تبكى .

* * *

وتنتهى قصة قصيرة من تأليف الكاتب اليهودى يوسف المصرى ، الذى سبق أن ألف كتاباً بعنوان « المأساة الجنسية للمرأة العربية » ولا أعرف ، ولا أحد ، يعرف إن كان هذا اسماً حقيقياً أو مستعاراً . . ولكنه أصدر عدة كتب عن مصر وإسرائيل . ولكن هذه المجموعة القصصية هى أفضلها وأقربها إلى المعنى الذى أريده وهو : مشكلة اليهودى ومن هو . ما تزال مشكلة كبرى فى إسرائيل وخارجها . فهذه الأم حزينة لأن ابنها سوف يتزوج فتاة مسيحية يهودية الأصل . . أى أنها ليست يهودية تماماً مع أن دماءها يهودية . فهى يهودية الأم ، ويهودية الأب . ولكنها تحولت إلى المسيحية . . كما فعل يهود كثيرون ولكن هذا التحول أفسد قلبها . وهذا يكفى . فهى ـ إذن ـ لم تعد يهودية وهى منذ لحظة زواجها من ابنها ، سوف تصبح مقبرة له ولأولاده من بعده !

هذه المجموعة القصصية عنوانها « دخان بين الأشجار وراء النهر » وقد صدرت فى العام الماضى . . ويقول المؤلف فى مقدمتها : « صور من بعيد لما يحدث هناك . إن هذه الصور لن ترضى الجميع ، ولكن يجب أن نعرفها .فنحن لم نستطع بعد أن نحل مشاكلنا الدموية ، وخير لليهود الذين شغلوا أنفسهم بمشاكل الكواكب الأخرى أن يجدوا حلاً لهذه البقعة الصغيرة من هذا الكوكب . . » ولم يجدوا الحل بعد . . ولكنهم سيحاولون ـ كما سنرى فيما بعد . .

* * *

وفجأة ـ كما يقول الفيلسوف اليهودى ريمون آرون ـ يشعر الإنسان بخطورة أن يكون يهودياً . . أو بسخافة أن يكون يهودياً . كما حدث فى سنة ١٩٦٠ عندما اجتاحت أوروبا فى وقت واحد علامات الصليب النازى . ظهر الصليب المعقوف على المقابر والمعابد والكنائس ومحطات السكك الحديدية . وبنفس السرعة اعتذرت بعض الحكومات .

واستنكر ذلك بعض الزعماء . وأحس اليهود مرة أخرى ، أن الزمن لم يقض نهائياً على كراهية الناس لهم . أو تشكك الناس جميعاً فى حسن نياتهم . . وكان هتلر ما يزال على قيد الحياة . وكأن اليهود عبء على الإنسانية ، وأنه لا راحة لها إلا إذا تخلصت منهم . .

ثم يمضى وقت قصير يهدأ فيه كل شيء وتتلاشى العلامات النازية . وهذا يدل على أن « اليهودى » ما يزال ذلك الإنسان الذى تكن له الإنسانية عظيم الكراهية . . وأنه ما يزال هناك وقت طويل لإقناع العالم بأنهم أناس كالآخرين . .

وتظهر فى نفس الوقت نزعات يهودية على شكل أحضان أو أجنحة ترفرف على كل نوعيات اليهود تقول : كل يهودى خارج إسرائيل يهودى . كل يهودى صهيونى أو ليس صهيونياً فهو يهودى . وكل يهودى ملحد يعيش فى إسرائيل هو يهودى ، مثل اليهودى المتدين الذى يعيش فى أقاصى سيبيريا الكل يهود . . ويجب أن يكونوا كذلك .

* * *

ويتساءل الفيلسوف الوجودى سارتر : ما الذى يجعل اليهودى رغم ما يلقاه من عذاب وهوان أن يظل كذلك ؟ ويجيب عن ذلك : بأنه يهودى لأنه ليس أمامه أية حلول أخرى . .

ويقول أيضاً : إنه يهودى لأن الناس يريدونه أن يكون كذلك . فهو احتراماً لنفسه ، يظهر فى الصورة التى يريدها الناس . . فهم يريدونه منطوياً خائفاً جباناً ، فيفعل ذلك . . ومعنى ذلك أن يهود العالم يحاولون أن يكونوا قريبين من الصورة التى اختارها الناس لهم . . فهم يهود بالقوة . . أى بقوة إكراه الناس لهم على أن يكونوا كذلك .

إنهم إذن يهود بأى شكل من الأشكال . ولكن هل هم جنس واحد ؟ هل هم شعب ؟

يقول الكاتب الفرنسى ريمون آرون : إن يهود العالم ليست لهم صفات جسمية واحدة . فلا وجه للشبه بين اليهودى الروسى واليهودى اليمنى . وكلاهما يهودى متدين أو ملحد . صهيونى أو مستنكر لها . . ثم إنه لا يوجد خلاف فى معالم الوجه بين اليهودى التونسى والمسلم التونسى أو بين اليهودى الهندى أو البوذى الهندى . . ويقول آرون أيضاً : إن يهود البحر الأبيض المتوسط لم يكونوا أصلاً من اليهود ، وإنما هم أجناس مختلفة تحولت إلى

الديانة اليهودية . ولا يختلفون فى الشكل عن الرومان والإغريق القدامى . . فهؤلاء اليهود أوروبيون وليسوا آسيويين .

واليهود ليسوا شعباً . فهم لم يستقروا على هذه الأرض ألفى سنة لا أقاموا فى فلسطين ، ولا فى أية أرض أخرى كل هذه السنوات الطويلة ولم يشملهم نظام سياسى واحد أو تاريخ متصل . ولا كانت لهم دولة .

ورغم ذلك فإنهم عندما تشتتوا بين الشعوب الأخرى ، لم يذوبوا فيها . وظلوا فى عزلة . وكان لهم دينهم وتقاليدهم وأسرارهم . ولم يخلصوا للدول التى عاشوا بينها ، وظلوا مخلصين لقانونهم الدينى .

* * *

وأعود إلى قصص يوسف المصرى . ففى إحدى قصصه يروى أن النار أكلت بيوت إحدى القرى . وأن واحداً من هذه البيوت قد إنهار على سيدة وأطفالها . . الأطفال صغار . . السيدة أصيبت فى أماكن مختلفة من جسمها ولكنها عندما نظرت إلى القرية حولها وجدتها قد احترقت تماماً . . ولكن بسرعة جاءت سيارات وطائرات وانقذت بعض الجرحى . . وامتدت الأيدى إلى هذه السيدة . ولكنها رفضت المساعدة . وأنكفأت على أطفالها تحتضنهم وتمسح عنهم التراب ولا تنطق بشىء . وكلما اقترب واحد منها تحولت إلى وحش تبرق عيناها وتتشنج أصابعها وتعوى . . وينظر الناس بعضهم إلى بعض ويرون أنه لا داعى لإكراهها على عمل شىء . . ثم إنها سليمة وأطفالها كذلك . . ويلقون إليها بالطعام فلا تمتد يدها إليه . . وفى اليوم التالى يعودون إليها فيجدونها فى حالة أفضل . . لقد غسلت وجهها وأطفالها نيام . . ولكنها لا تتكلم . وفى اليوم الثالث وجدوا السيدة قد اعتدلت فى جلستها . وأطفالها يلعبون . وإلى جوارها أحد رجال الدين . . ويشعر الناس بالضيق ويقولون : تظاهرت بأنها مجنونة ! إنها لم تكن كذلك . . إنها إذن ادعت الجنون حتى لا نقترب منها . . وحتى لا نكتشف الكنز الذى أخفته تحتها . . ولا الطعام الذى وضعته فى مكان ما ولا أرادت أن نعرف أن هناك جماعة سرية تساعدها . . ملعونة . . هؤلاء اليهود ملاعين . . ألا ليت هذه الجدران قد سقطت عليها وعلى أولادها » . .

فى مقدمة هذه المجموعة القصصية يقول المؤلف المجهول معنى هذه القصة وستجد من بين هذه القصص صوراً « للعزلة المزدوجة » . . أى عندما يعزلك الناس مرة ويجعلونك

بعيداً عنهم . . ثم تقوم أنت بعزل نفسك عن عمد . . ويصبح الإنسان معزولاً منعزلاً . . وهذا الإطار المزدوج هو الذى أبقى على اليهود فى كل مكان وزمان . .

أو بعبارة أخرى : إن اليهود فى كل المجتمعات الأخرى يجدون أنفسهم قد انعزلوا . . وأنطووا على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم . . وانغلقوا فى حواريهم . . ثم إن كراهية الشعوب الأخرى هم جعلتهم لا يرونهم . . أو لا يشعرون بهم أو لا يحبون ذلك . . فهذه هى العزلة المزدوجة . وهى التى أبقت على اليهود فى كل البلاد التى عاشوا فيها . . إنهم محاطون بجدران باردة كريهة . . هم يكرهون الناس والناس يكرهونهم . . ولذلك لا هم يرون الناس على حقيقتهم ، ولا الناس كذلك . .

ولذلك يقول الكاتب الفرنسى اندريه سيجفريد : اليهودى إنسان متشائم لأنه يرى المجتمعات التى حوله بصورة عارية بغيضة لا إنسانية فيها . . ومن هنا كانت قسوة اليهود على الذين يعايشونهم ، وقسوتهم على اليهود . . والمعنى هو : أن هناك أنواعاً مختلفة من اليهود فى كل أرض . . اليهود كما تظهر صورتهم للناس . . اليهود كما صورهم الناس لأنفسهم : اليهودي المتدين . . اليهودى المتعصب اليهودى الملحد . . اليهودى التاجر . . والنتيجة : أن اليهودى صورة غير محددة وغير معروفة لا عند اليهود ولا عند غيرهم من الناس !

ولكن مع التسلل اليهودى إلى الشرق الأوسط وإلى فلسطين تولدت مشكلة جديدة . وهى كيف يمكن صنع « عجينة يهودية ' . . أو كيف يمكن تخليق عجينة يهودية جديدة ، تتلاشى فيها الفوارق اللونية والدينية والثقافية والتاريخية . كيف يمكن صنع يهودى جديد . . أى نوعية يهودية جديدة تضاف إلى بقية النوعيات الأخرى . . أو بعبارة أخرى : **إذا كان اليهود لم يفلحوا حتى الآن فى تحديد معالم من هو اليهودى فلماذا لا يحاولون أن يصنعوا يهودياً من نوع آخر مستخدمين كل الحيل التى تجعله مختلفاً تماماً عن اليهود فى كل العصور وأكثر تشدداً وتعصباً وتفجراً وفجوراً ؟**

وقد حدث فى سنة ١٩٤٥ عندما كان أربعة جنود من قوات سلاح الطيران البريطانى يتمشون فى شوارع القاهرة أن خطرت لواحد منهم فكرة : **لماذا لا نذهب إلى فلسطين ونرى ما الذى يفعله اليهود من وراء ظهور العرب ؟ وتلفت كل منهم وراءه خوفاً من أن يسمعه أحد ؟!. ثم عاد واحد يقول : لماذا لا نكتب للوكالة اليهودية فى القدس ؟**

وأرسل واحد منهم خطاباً إلى الوكالة اليهودية يقول : « نحن أربعة مررنا كثيراً فى الريف المصرى . وتوقفنا عند القرى والمدن . . وسافرنا إلى أسوان والإسكندرية . . ولسبب ما قررنا أن نسأل إن كان ممكناً أن نتفرج على التجربة اليهودية الجديدة . . وهى كما يقول زملاؤنا اليهود هنا ، كيف تطهو يهودياً على نار هادئة من أجل البقاء فى فلسطين ؟ نريد أن نزور المستعمرات اليهودية حيث تزرعون أو تضعون بذرة اليهودى الجديد . . نريد أن نرى تجاربكم هذه التى تتم تحت أنف العرب وهم لا يدرون منها أو عنها شيئاً . .

وبعد أيام أرسلت الوكالة اليهودية ترحب بالطيارين الأربعة . . وتحدد لهم بعض المستعمرات اليهودية ليروا بأنفسهم كيف يقوم اليهود بتوليد سلالات جديدة من اليهود الشرقيين أو الغربيين ، قادرين على الحياة فى هذه المنطقة المغتصبة من العالم . .

وقد سجل واحد من هؤلاء الأربعة تجربته فى كتاب بعنوان « القبوتس طريق جديد للحياة » . . تأليف دان ليون .

وقد جاء فى مقدمة الطبعة العبرية : أن المؤلف تحدث عن هذه التجربة من بدايتها . وعن دور المستعمرات فى توحيد شعب تشتت فى الأرض ألفى سنة . . إن عبارة مشهورة لهرتسل لها دلالتها : « إذا ما الفلاح اليهودى أمسك المحراث بيده ، فسوف تنحل المشكلة اليهودية » . وأن الذى يذهب إلى هذه المستعمرات سيدرك صدق هذه العبارة وصعوبة تحقيقها أيضاً . . وسوف يجد أن اليهودى البورجوازى الصغير الأوروبى قد تغير إلى حد كبير منذ قرر البقاء على هذه الأرض . .

فهل تنتهى مشاكله مع الذين سبقوه إلى إغتصاب الأرض العربية ؟ لا نهاية لمشاكله !

جنة: يوم السبت وجهنم: بقية الأسبوع

من يذهب لمشاهدة المستعمرات اليهودية يوم السبت من أى أسبوع سيقول إنها جنة الله على الأرض . . ومن يذهب إليها يوم الجمعة أو الأحد أو بقية أيام الأسبوع يقول : إنها جهنم أشعلها اليهود على أنفسهم . .

فى يوم السبت يتوقف العمل فى المستعمرات . إنه يوم إجازة مقدسة . كل أبناء المستعمرة قد ارتدوا ملابسهم المتشابهة تماماً . وجلسوا تحت الأشجار يتحدثون أو يتهامسون أو يأكلون أو يعزفون الموسيقى . . الآباء جاءوا لزيارة الأبناء . الشباب يجلسون اثنين اثنين . . كل شىء هادىء تماماً . إنه مجتمع عامل منتج ، وهذه إجازته . لا فرق بين صغير وكبير بين أبيض وأسود . كلهم سواء فى الراحة والعمل .

أما بقية أيام الأسبوع فهذه المستعمرة مختلفة تماماً . فالعمال يزرعون الأرض أو يحرثونها . . الجرارات تروح وتجيء . الفتيات يعملن فى الحقول . وأخريات يكنسن أو يغسلن أو يدرسن للأطفال . . والرجال الكبار قد أمسكوا الأوراق والأقلام وراحوا يقلبون فى الدفاتر يبيعون ويشترون . . وهؤلاء الجنود قد عادوا من الجبهة . . أو فى الطريق إليها . . لا أحد عنده وقت ليتكلم مع أحد . فكل واحد يدور

فى جهاز يتحرك فى صمت . إنه مجتمع يعمل لأنه لابد أن يعمل . فهذه المزرعة أو القرية أو المستعمرة يملكها كل العاملين فيها . . كل واحد يعمل ولذلك يأكل ويشرب وينام . . ولا مجال للاسترخاء . . وإذا نظرت إلى وجوههم ، فهى مرهقة وهى شاحبة وهى حزينة . إنها قطعة من جهنم ظهرت على سطح الأرض . ويجب ألا تغرك الأشجار الخضراء ولا الأبقار ولا الأغنام ولا الأطفال . فالكل مشدود بخيوط واحدة يمكن سحبها عند الغروب فإذا الكل قد دخل إلى الغرف أو الحظائر ويبدأ الليل والنوم استعداداً ليوم آخر أكثر عنفاً وقسوة !

ولكن هذه المستعمرات اليهودية لا هى جنة ولا هى نار . وإنما هى مزيج من الاثنين بدرجات تتفاوت من مستعمرة إلى مستعمرة . أو من حزب سياسى إلى حزب دينى . فأكثر المستعمرات تتبع الأحزاب السياسية وهذه الأحزاب تفرض فلسفتها على الحياة العمل فى داخل المستعمرات وكذلك الأحزاب الدينية .

وهذه المستعمرات هى « تصحيح » للحياة المبعثرة المشتتة التى عاشها اليهود ألوف السنين فى المجتمعات الغريبة عنها المعادية ـ أى التى يعاديها اليهود ، أو التى تعادى اليهود . وهى محاولة لأن « يعيش اليهود معاً » . كلهم يهود . من كل لون وكل طبقة . حتى لا تكون هناك فوارق فى اللون والطبقة والدين والسياسة . فهذه المستعمرات هى « حياة جديدة » أو هى فى الطريق إلى حياة جديدة . . فهى طريق وهى نهاية الطريق .

وقد اندفع اليهود فى نهاية القرن الماضى إلى تكوين المستعمرات أو القبوتس أو القبوتص على أرض فلسطين ، ولم تكن عندهم خطة مدروسة . وإنما هى أحلام بعض المهاجرين ، أدركوا أن اليهود لم يرتبطوا بالأرض ، بأى أرض . ولذلك قرروا أن تكون لهم أرض . وأن يزرعوها ، وهم لم يزرعوا أى أرض . وإنما كانوا يعملون فى التجارة أو فى الصناعة أو بعض الحرف المنحطة . ولكن عندما جاءوا إلى فلسطين قرروا أن تكون لهم أرض يزرعونها ويحرثونها ويبيعون ثمارها . . وأن يكونوا معاً يداً واحدة تزرع ويداً واحدة تبيع وتدافع عنها . لا فرق بين صغير وكبير . . ثم إن الأرض للجميع لا يملكها أحد . ولا توجد هناك عملات يتبادلها ويتداولها الجميع . . يكفى أن كلا منهم يعمل ويأكل . وأن تكون لهم من حين إلى آخر بعض الفلوس يبعث بها إلى أهله أو يبعث بها بعض الهدايا . . وإذا خرج الواحد من هذه المستعمرة فليس له أى حق . فلا هو مالك ولا هو مساهم فى

شيء . وإن كانت المستعمرة تعين بعض الخارجين منها أو الخارجين عليها بعض الوقت حتى يتمكن من استئناف حياته فى مكان آخر .

* * *

والمستعمرات بهذه الصورة عبارة عن مجتمع شيوعى جديد . . أو نواة لمجتمع شيوعى على أوسع نطاق . . أو أن المستعمرة اليهودية هى مجتمع يعيش فيه الناس حياة جنس بلا زواج . . فلا علاقة تربط رجلاً بامرأة ، لأنه مفروض ألا يكون لأحد شيء خاص . أو ملكية خاصة . أو زوجة خاصة . وحتى إذا كانت هناك علاقات جنسية بلا عقد زواج بين رجل وامرأة ، فالأولاد ملك للمستعمرة . وللأب والأم حق فى الاهتمام من بعيد بالأطفال بشرط ألا يؤدى هذا الاهتمام إلى تمييز فى معاملة الأبناء عن بقية الأطفال . كما أن الأب ليس له الحق فى أن يقدم هدايا من أى نوع لأولاده . .

ولابد أن يكون الموقف المعادى للعرب ـ عداؤهم للعرب وعداء العرب لهم ـ هو الذى حتم قيام هذا التماسك الشيوعى فى المستعمرات اليهودية . وعلى الرغم من أن اليهود معاً لا يطيقون بعضهم البعض ، فإن عداء العرب لهم قد جعلهم يتماسكون . . ومن المناسب أن أذكر صورة كاريكاتورية ظهرت فى برنامج « اغسل وجهك » فى التليفزيون الإسرائيلى . فقد ظهر فى هذا البرنامج الساخر عدد من الوحوش فى سيرك . هذه الوحوش كانت تتشاجر وكادت أن تقتل بعضها البعض ، لولا أن جاء رجال السيرك والتفوا حول القفص الحديدى وراحوا يصرخون ويلقون على الوحوش بالماء البارد والماء الساخن ويضربونها بالطوب . هنا فقط تقاربت الوحوش والتصق بعضها ببعض فى صمت رهيب . ماذا حدث ؟ لقد اتحدت ضد رجال السيرك . . اتحدت الوحوش وهى أكثر عداوة بعضها لبعض . ولكن العدو الواحد الذى أهانها بالماء والطوب ، قد قارب بينها . . وكذلك يهود إسرائيل : إنهم عشرات الأحزاب السياسية والدينية ، وهم أكثر وأشد عداوة وحقداً وتمزقاً ، ولكن عندما يكون هناك عرب فهم يد واحدة وصف واحد .

ولذلك يجب ألا نرفع أعيننا عن الذى يجرى فى المستعمرات وفى خارجها أيضاً . فلا يزال المجتمع اليهودى ممزقاً . ولا يزال مجتمعاً عنصرياً ، ومجتمعاً دينياً متعصباً فإسرائيل دولة دينية . أى دولة يهودية . وهى فى نفس الوقت دولة عنصرية : الأبيض مواطن من الدرجة الأولى ، والملون من الدرجة الثانية حتى ولو كان يهودياً . ثم إن

اليهودى الذى ولد فى أمريكا ولم ير إسرائيل أفضل من اليهودى الملون الذى ولد فى إسرائيل وحارب دفاعاً عنها وانكسرت ساقاه ويداه !

وإذا كانت إسرائيل قد ذكرت فى « إعلان الاستقلال » أن المواطنين سواء أمام القانون ، فليس هذا صحيحاً ولم يكن ولن يكون . يكفى أن يذهب مواطن واحد لمكتب توثيق عقود الزواج . يكفى أن يسأله : **أنت يهودى ؟**

- نعم .

- **وهى ؟**

- زوجتى مسيحية .

وهنا يقفل الحاخام الدفتر الذى أمامه ويحنى رأسه . ويتكاثر حول العريس آخرون يطلبون إليه أن يخرج ويكفى هذا إهانة للرجل وللبلد .

وعلى هذا العريس : إما أن يكون مسيحياً ويتزوج فى قبرص . أو تتحول زوجته إلى اليهودية ـ إن كان هذا ممكناً ـ أو يتحول الاثنان إلى الإسلام . فإن كانت هى يهودية وهو المسيحى فلابد أن يتحول إلى اليهودية ولابد أن يجىء طبيب ويقوم بطهارته فوراً . وبعد ذلك يجد من رجال الدين من يعترض على إنه يهودى . وعلى ذلك فهو مواطن من الدرجة الثانية !

وفى مدارس إسرائيل مشاكل غريبة فالطلبة إذا عرفوا أن واحدة أو واحداً منهم ليس يهودياً تماماً ـ أى يهودى الأب ومسيحى الأم أو العكس ـ راحوا يعيرونه حتى يهرب من المدرسة أو ينتحر . ويذهب أبواه إلى القضاء . . ولن ينفعه أحد .

ففى البطاقة الشخصية لكل مواطن يجب أن يذكر دينه فيقول : يهودى . . أو عربى أو مسيحى .

أى أن العربى لا يهم إن كان دينه مسيحياً أو مسلماً . المهم أنه عربى والسلام . وفى هذه الحالة هو مواطن من الدرجة الثانية المخفضة . أى من الدرجة الثالثة . أما المسيحى ، فلابد أن يكون أوروبياً أو أمريكياً . أما العربى اليهودى فهو أيضاً مواطن من الدرجة الثانية .

وقصة الشاعر اليهودى راتوش وهو من زعماء « حركة كنعان » لم يشأن أن يذكر فى

بطاقته أنه يهودى . . فسحبوها منه . ولكنه أصر أن ينص فيها على أنه عبرى ، أى من سلالة عبرية وليس من الضرورى أن يكون يهودياً . ولا يزال بغير بطاقة شخصية . وهناك قصة مشهورة جداً عن أحد الجنود الذين حاربوا فى سنة ١٩٧٣ هذا الجندى إنفجر فيه أحد الألغام ، ففقد ساقيه . فأرسل خطاباً إلى جولدا مائير يقول لها : يا أرجل رجل فى وزارة من النساء . . قولى لى : **كيف إننى إسرائيلى ١٠٠٪ ومكسح ١٠٠٪ ثم إننى يهودى ٥٠٪ ؟!**

ولم يتلق رداً منها ، وسبب ذلك أن والده يهودى وأمه مسيحية !

وقصة جندى أمريكى عمل فى سلاح المدرعات الإسرائيلى . . ولكن لم تعترف الدولة بأنه يهودى لأن أمه مسيحية . فكتب إلى رئيسة الوزراء يقول لها : إما أن أكون يهودياً ، أو أكون عربياً . . فإذا كنت يهودياً فلماذا لا تكتبون ذلك بخط واضح فى بطاقتى وقد عملت فى الجيش عشر سنوات ، وإما أن أكون عربياً فلا يصح أن أكون جندياً فى الجيش الإسرائيلى .

ولم يتلق رداً من أحد .

* * *

ومن أعجب حوادث حرب العبور أن جندياً حارب فى سيناء ومات وهو يدافع عن خط بارليف . فلما دفنوه رفضت الهيئات الدينية أن يكون ذلك فى مقابر اليهود . وإنما أصروا على أن يدفن خارج سور المقبرة . واحتج أبواه . وأخيراً وافقت وزارة الشئون الدينية على أن يدفن فى مقابر اليهود بشرط أن يكون بعيداً بعض الشىء . وغضب الأبوان أيضاً . وكانت حجة وزارة الشئون الدينية أن الجندى لم تتم طهارته . ووافق الأبوان على إستخراج الجثة وإجراء الطهارة لها ودفنها بين قبور زملائه من الجنود الذين ماتوا فى حرب أكتوبر !

* * *

وغير ذلك من مئات الألوف من الأمثلة على المرارة التى فى أفواه اليهود من اليهود . ومع ذلك يجب أن تذوب كل الفوارق بالقوة والعنف . وهذه المستعمرات هى « بوتقة على نار هادئة » لتذوب فوارق الدين واللغة . والطبقة والسياسة واللون من جميع المهاجرين من كل أرض .

وأكثر من نصف اليهود فى إسرائيل مهاجرون كبار فى السن . ولذلك لا يعرفون اللغة العبرية معرفة جيدة . . ولذلك حرصت الدولة على أن تكون اللغة العبرية هى اللغة الرسمية فصدرت عشرون صحيفة يومية وأسبوعية باللغة العبرية ، ولكن فى نفس الوقت هناك عشرات من الصحف بلغات أخرى متعددة . وهذه اللغة إلى جانب العوامل الأخرى ، تباعد بين اليهود وبين الصابرا ـ أى اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل ـ أى أشجار الصبار التى تنبت فى الصحراء الفلسطينية التى اغتصبها اليهود .

وفى المستعمرات الكل يدرس ويتكلم اللغة العبرية . فاللغة واحدة . والزى واحد والطعام واحد . والمذهب السياسى أو الدينى واحد . وإنعدام الملكية والمساواة بين الجميع هى الخيط الذى يمسك الجميع والإطار الذى يحتويهم والهدف الذى يشدهم بعصبية وتعصب .

ويقال إن هذه المستعمرات لها أصل تاريخى قديم . ويحاول اليهود أن يردوا كل شىء فى الدنيا إليهم . فهم أول من فكر فى أى شىء فى كل شىء . . فيرون أن هذا النوع من الشيوعية الجديدة ، قد ظهر عندهم قبل ذلك فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح . « جماعة الأطهار » أو « جماعة الأتقياء » . . وهم أتقياء وأطهار لأنهم زاهدون فى الدنيا وفى نعيم الدنيا فقد بنوا الأسوار حول أنفسهم . يعملون فى ملابس بيضاء فى رهبانية تامة : لا ذهب ولا نساء ولا أحد يملك شيئاً من كل ما فى يديه من أرض وملابس وبذور وثمار . .

ربما كانت هذه هى البداية . . ولكن الأقرب إلى التاريخ والعقل هو أن الذين أقاموا إسرائيل هم من الصهاينة الشيوعيين . فكلهم من روسيا وبولندا . وهم جميعاً يهود ملحدون . ولذلك كانت هذه المستعمرات هى مناطق لإذابة الفوارق بين كل الناس والقضاء على الصراع الطبقى . ثم إنها نقط وثوب إلى المجتمع الإسرائيلى لتوحيده بعنف ضد العالم العربى الذى حوله .

هذا صحيح ولكن لأسباب مختلفة . فالمستعمرات التابعة للأحزاب السياسية تريد مجتمعاً شيوعياً خاصاً ثم شيوعياً عاماً . أما المستعمرات التى تملكها الأحزاب الدينية فهى تريد مجتمعاً يهودياً خالصاً من أجل الإستيلاء على « الأرض التى أعطاها الرب لأبينا إبراهيم » وطرد الشيوعيين من إسرائيل . . وكل ذلك توحيد دينى شامل ضد العرب !

قل لى أيها الشاب كيف تعيش؟

اجتمع عدد من الشبان فى إحدى المستعمرات اليهودية يتساءلون : لماذا لا يوجد إلا عدد قليل من اللصوص فى السجون ؟

وتلفتوا بعضهم إلى بعض ، قال واحد : لأنه لا يوجد ما يسرقونه .

- بل لأن أكثر اللصوص فى الجيش !

- بل لأنه لا توجد سجون كافية فى إسرائيل .

- . . السبب الحقيق هو أن لدينا عدداً ممتازاً من المحامين . .

- ومن قال إن الذين فى السجون لصوص . . إنهم جماعة من المتآمرين هربوا من البوليس ودخلوا إلى السجن ليكون عندهم وقت أوسع للتفكير فى جرائم أكبر !

- بل السجون أرحم من المستعمرات . .

- لا مانع عندى من دخول السجن إذا ضمنوا لى كمية كبيرة من الحشيش وفتاة تدعى إنها أختى لتزورنى من حين إلى آخر !

* * *

ولم يكن الجو مرحاً . ولم يكن هؤلاء الشبان يحاولون أن يسخروا من بلادهم . ولكنهم جادون فى تفكيرهم وانتهى بهم التفكير الجاد إلى مثل هذه الآراء . . أو إلى مثل هذه الخلافات فى الرأى . .

ولذلك فقد استمتعت بقراءة كتاب بعنوان : « **الإسرائيليون الجدد . . تقرير عن الجيل الأول الذى ولد فى إسرائيل** » تأليف داود شينبرن وآخرين . وهذا الكتاب هو تقرير من أفواه الشبان . فقد التقى المؤلف بمئات من الجامعيين والجنود والموظفين وأبناء المستعمرات وآبائهم وأقاربهم ، من الفتيان والفتيات . وسجل كل أحاديثهم . ثم درسها المؤلف . واستعان بتقارير الهيئات الاجتماعية والنفسية والأبحاث الميدانية . **ولا أظن أن عندنا دراسة بهذا المعنى عن جيل ثورة يولية ولا حتى جيل ما بعد ٥٦ أو ما قبل ٦٧ أو ما بعد ٦٧ . . لماذا؟ هذه قضية أخرى!**

وعلى الرغم من حرص المؤلف على الإشادة بإسرائيل ، فإن الكثير مما نقله يستحق الاهتمام الشديد . فهو اتجه إلى الشبان يسألهم عن حياتهم فى إسرائيل . ويسألهم عن مستقبل الحياة مع اليهود ومع العرب ويسألهم إن كانت إسرائيل قد حققت الأحلام الكبرى التى عاشوا عليها وهم أطفال . هل إسرائيل ومستعمراتها هى الجنة الموعودة ؟ لماذا هم مختلفون ممزقون ؟ لماذا إذا جلس شاب وأبوه وأمه ، كان الصمت رابعهم ؟ لماذا إذا خرجوا من الصمت اختلفوا وانسحب الأب حرجاً أو انسحب الابن يأساً ، أو انزوت الأم تبكى ؟ لماذا كل هذا ؟ إنها قصة جيل وجيل . . أو قضية الفجوة التى تتسع بين الأجيال .

المؤلف يرى أن الأسرة فى إسرائيل والدولة أيضاً ، من صنع الرجل لتحكمها المرأة . . فالأسرة الصغيرة تجد فيها الابن أفضل من فى البيت . . وتجد الأب هو سيد البيت ، ولكن الأم هى التى تحكم الجميع . . تماماً كما كانت جولدا مائير رئيسة للوزراء تروض عدداً من الوحوش مثل ديان وسابير وبنحاس وآلون وبيريز . . فهذه السيدة هى التى حكمت جميع المتنافرين . . ويروى أن بن جوريون عندما ذهب إلى باريس رافقته جولدا مائير وزيرة الخارجية فى ذلك الوقت وكان بن جوريون يريد أن يقدمها إلى الجنرال ديجول . فسأله ديجول : هل هناك فى التعاليم اليهودية ما يحتم أن تكون المرأة وزيرة ؟

وقال بن جوريون : ومن قال إن جولدا مائير امرأة . . إنها أرجل واحد فى الوزارة !

وعلقت مائير على ذلك : إن الرجال يقصدون بذلك تحيتي والإشادة بي وإن كنت لا أرى ذلك !

* * *

ولكن الشبان لهم رأى آخر . . أحد الشبان الذين سألهم المؤلف قال : بل لا أحب أن تعمل المرأة بالسياسة . المرأة للبيت . هى هكذا . أنا أعمل وهى تدبر البيت وتربى الأولاد . . إن جولدا مائير ليست امرأة . إنها هيئة . مؤسسة . . إنها عبقرية . . ومن هو المغفل الذى يقبل الزواج من امرأة عبقرية . . أريد زوجتى امرأة بسيطة ذكية . متعلمة . وأفضل ألا تكون جامعية !

شاب ثان يقول : أريد أن أدخل الجيش وانهى خدمتى . وأعود إلى الجامعة أكمل تعليمي . وأجد لى عملاً وأكون قد بلغت الرابعة والعشرين واتزوج فتاة أصغر منى . وأقل ثقافة . ويكون لنا بيت وثلاثة من الأولاد . ونعيش ككل خلق الله فى كل مكان !

شاب ثالث يقول :لابد من الزواج . . إنه علاقة صعبة . التزام أخلاق وربما كانت الزوجة الواحدة لا تكفى . أو ربما كانت العلاقة بامرأة واحدة لا تكفى . فهذه هى طبيعة الرجل . ولكن لا يمكن أن تقوم أسرة على الخيانة . فلكى يكون الزواج ناجحاً ، يجب أن يكون الزوج مخلصاً ويكون نموذجاً لأولاده .

وقد لاحظ المؤلف أن ٧٠٪ من الشبان اليهود يرون ذلك . وقالت فتاة فى العشرين من عمرها :

ـ لم تكن لى علاقات جنسية . وليس سبب ذلك بروداً فى طبعى . ولا جبناً . ولكنى أفضل تجربة الزواج . . أو أفضل « الزواج التجريبى » أى أن يكون هناك شخص أحبه . ونعيش معاً بلا زواج لنتفاهم على كل شىء وفى كل شىء . وبعد ذلك نعقد زواجاً سعيداً . . إنهم فى المستعمرات يعيشون بلا عقد زواج . ولكن بلا حب أيضاً . . وأنا أرى أن الحب شرط الزواج . وأرى أن التفاهم أساس النجاح فى أن تكون هناك أسرة . . وأرى أن الحياة الزوجية يجب ألا ينظر إليها الإنسان بهذه

السهولة والاستخفاف .

ومئات من بنات القبوتص - المستعمرات اليهودية - كل واحدة تفضل الحياة فى المدينة . . فى تل أبيب أو حيفا . لأنها ملت الحياة فى الصحراء مع نفس الوجوه . . ونفس الروتين اليومى فى كل شيء . . حتى أصبحت الحياة صامتة ساكنة جامدة . فليس عند أى إنسان شيء يقوله أو يفعله . بل إنها لاحظت أن معظم الناس لا يردون تحية الصباح أو المساء . . أو لا يبدأونها . . فكل شيء معروف مقدماً . وكل شيء لا داعى له . ولا قيمة له . . وتقول : ولا أفضل الزواج بغير حب . . وفى نفس الوقت لا أفضل الحب الملتهب . لأن الحب المشتعل لا يدوم . أفضله هادئاً مستمراً مستقراً . . ولا شيء من ذلك فى المستعمرات !

وسئل شاب من أبناء المستعمرات فقال : أنا لا أحب الحياة فى المستعمرات . لأن هذه الحياة بلا حياة . فأنت لا تجد نفسك . أنت ضمن الآخرين . أنت محشور فى الطابور . أنت « مزنوق » فى المطعم . . أنت مفروض على الآخرين . وهم مفروضون عليك . ليست لك رغبات خاصة . بل أنت جزء من رغبة عامة . . . من طابور طويل . ولذلك فأبناء المستعمرات لا يستريحون إلا إذا ذهبوا إلى الجيش . . ففى الجيش عمل جماعى . وطاعة . ولكنهم حتى عندما يذهبون إلى الجيش فإنهم كالذى هرب من الفرن إلى إناء يغلى . . إنها نار أرحم من نار أخرى .

قالت فتاة مجندة وتخصصت فى علم نفس الجريمة : أنا أفضل أن أعمل فى الشرطة العسكرية . . أدرس الجنود . واهتم بهم . وأتخصص فى المخدرات . فأكثر الشبان يدخنون الحشيش .

سئل شاب أبوه روسى وأمه بولندية : لا أوافق على المساواة بين المرأة والرجل . فالمرأة ما الذى تريده أكثر مما أخذت ؟ إن كل شيء ينتهى بين يديها . . هى التى تدير البيت وتربى الأطفال ومعها كل فلوس الأب . . ثم إنها أكثر راحة واسترخاء من الرجل . كم عدد الرجال الذين يموتون فى الحرب وكم عدد النساء ؟ ثم نتحدث عن المساواة . . مساواة من بمن ؟ إنها مساواة الرجل بالمرأة التى لا تموت ولا تصاب بشيء !

وقالت إحدى المجندات : المرأة يجب أن تؤدى واجبها . . ولكن المرأة يجب ألا تحارب . إنها لا تقوى على ذلك . دعونا نتحدث بصراحة وصدق . . إنها تفقد أعصابها بسهولة . .

ولكن وجود المرأة فى الجبهة إلى جانب الرجل يرفع معنوياته ويجعله يشعر أنه يعيش فى مجتمع طبيعى . ولكن الرجل أقوى جسمياً . . وأكثر استعداداً من الناحية النفسية للقتال والقتل . .

أحد الجنود قال : لا يمكن أن نحب الحرب . . ما الذى نحبه فى الدم والموت والعفونة والدخان والشظايا ؟ ما الذى نحبه فى الخوف الدائم من كل جهة . . ما الذى يعجبنا فى أن نهرب من أوروبا حيث الأمان والرفاهية إلى هذه الصحراء حيث كل شبح يبدو من بعيد نتصوره عربياً جاء يقتلنا . . إنهم إذا لم يظهروا على الأرض ، فإنهم يطاردوننا فى أحلامنا . . إننا نريد أن نعيش كخلق الله . . نريد حياة عادية . . إننا إذا تراجعنا ، فإن تراجعنا هذا لن يقف إلا عند شاطىء البحر . . العرب يريدون القضاء علينا . . ولذلك يجب ألا نتراجع . . والعرب إذا دمرونا فلن يقوموا ببناء بيوتنا . إن أمريكا حطمت ألمانيا واليابان ، ثم هى التى بنت هذه البلاد وأقامت اقتصادها كله . . ثم إن روسيا التى هدمت أوروبا الشرقية لم تعمل على بنائها . . ولم تبن نفسها إلا بصعوبة وتضحيات فادحة . . فهل من المعقول أن تقوم مصر ببناء إسرائيل بعد أن تقضى عليها ؟ ولذلك يجب أن نحارب ونحن كارهون للحرب والدم . . إننا نريد أن نعيش ككل الناس الذين يجيئون إلى إسرائيل ويتفرجون علينا كأننا وحوش أتوا بها من الغابات ثم وضعوها فى بيوت زجاجية حتى لا تؤذى السادة المتفرجين !

* * *

وقد لاحظ المؤلف من قراءته لكثير من الخطابات التى أرسل بها الجنود إلى زوجاتهم أن الخطابات جافة . كأنها مراسلات حكومية .

فليست فيها عبارة حب . أو شوق . بل إن أحد الجنود كتب يقول لزوجته بعد شهرين فى الجبهة : نسيت أن أقول لك إنك وحشتنى . ولابد إنك قد عرفت ذلك من نفسك . هل ركبوا لك عداد النور الجديد ؟. . . إلخ .

ولما سئل عدد من الشبان إن كان صحيحاً أنهم هكذا بلا عواطف ؟ وافق بعضهم ، بينما اعترض الآخرون قائلين : إننا جيل مختلف عن أجيال آبائنا . فلنا أساليبنا الخاصة فى التعبير عن مشاعرنا . وليس من الضرورى أن نقول ما يقولون . إن المسألة من أولها لآخرها : هى مجرد عادة وضغط مستمر لكى تقول شيئاً واحداً .

فالذي يحدث هو أننا ونحن صغار يقولون لنا : يجب أن تحب أمك وأباك وزوجتك وابنتك ووطنك ودينك . . يجب ، يجب . ولذلك إذا كتبنا أو تكلمنا فلابد أن نقول : أحبك يا أبي يا أمي . . إنهم هم الذين عودونا على ذلك . وضغطوا علينا . . حتى نكرر ذلك كالببغاء . فإذا فعلنا فنحن طيبون مطيعون مخلصون شرفاء . هذا رأيهم ولكننا جيل آخر . له أسلوب آخر ، وفهم مختلف وآمال مغايرة . ويجب أن يكون هذا معروفاً . وليس من حق أى جيل ، مهما كانت أعماله عظيمة ، أن يدوس الأجيال القادمة ويفرض عليها رأيه وحياته ، دون أن يرى هذه التغيرات التى طرأت على كل شيء !

إن احترامنا لآبائنا ، وما صنعوه من أجل أن تكون هناك دولة إسرائيل لا يبرر مطلقاً أن يعيشوا هم لنموت نحن . . ويموت الكلام على ألسنتنا ، ومشاعرنا فى قلوبنا باسم الطاعة لهم والولاء لمبادئهم!

* * *

ولما التف عدد من السياح الأمريكان حول أحد شبان المستعمرات سألوه فقال : **هه ! . . طبعاً أنتم سعداء بأن تكونوا فى هذه الأرض المقدسة ؟ لا أعرف لماذا تسمونها مقدسة . . ما هو المقدس فى الذى ترونه الآن . . صحراء وذباب . . وعرق وحشرات وزواحف . . وشباب نحيف حزين . . وأنتم سوف تعودون إلى بلادكم الغنية الرخية وتشربون أطيب الخمور أمام التليفزيون الملون . . ثم يقول أحدكم للآخر : كنا فى إسرائيل ورأينا هؤلاء الشبان الأبطال على الأرض المقدسة . . وتتنهدون . . ولكن ما الذى قلتموه ؟ ما الذى بقى من هذه الأرض وأبناء هذه الأرض فى نفوسكم ؟ إنها أرض ولكن ليست مقدسة إلى هذه الدرجة . . إن جيل جولدا مائير هو الذى ثار على أوضاع اليهود فى العالم . . وآبائى هم الذين أكملوا هذه الثورة . . أما نحن فنريد أن تكون لنا حياة عادية . . إننا نتعلم كراهية العرب واحتقارهم . . ولكننا لا نستطيع أن نعيش حياة عادية كالعرب . إننا نحسدهم على حياتهم الهادئة . . إن كل ما أريده هو أن أكون إنساناً عادياً . . ولا أريد أن أكون حيواناً شرساً خائفاً طول الليل والنهار . . ومطلوب مني ، باسم الوطنية والدين أن أحب زوجتى وابنتى ووطنى . . فمن أين آتى بهذا الحب إذا كان كل ما ينفجر فى داخلى هو : آبار المرارة والكراهية والثأر !**

يقول المؤلف إنه التق بمئات الشبان يكررون نفس هذه المعانى بعبارات مختلفة . إنهم ساخطون على زعمائهم . كارهون لحياتهم . يتمنون لو ولدوا على أرض أخرى ، أو عادوا ليصبحوا مثل كل الناس العاديين فى بلاد أخرى . . فلا يحملوا السلاح ولا يحملوا تحت السلاح شظايا شائكة من الخوف والكراهية .

***

وفى سنة ١٩٦٨ قرر أبناء مستعمرة « عين شمر » أن يحتفلوا بانتصارات يونيو سنة ١٩٦٧ وأن ينيروا المصابيح ويدقوا الطبول ويأكلوا ويرقصوا . . فقد انتصر اليهود على العرب .. ولكن بعض رجال المستعمرة رأوا إنه لا بأس من الاحتفال بالنصر ، ولكن يجب أن يذكروا موتاهم . . وهذه الذكرى تجعلهم يقتصدون فى الحفاوة على جثث القتلى .

ولكنهم اهتدوا إلى حل وسط . . وهو أن يحتفلوا بالنصر وبذكرى موتاهم فى وقت واحد . ولكى يعرفوا قيمة التضحية التى بذلها الموتى يجب أن يناقشوا هذه القضية : كم تساوى حياتنا فى هذه المستعمرة ؟

ودارت مناقشات حادة وجادة وهامة جداً . وقد سجلت هذه المناقشات على أشرطة وفى مسجلات وزارات الشئون الدينية والاجتماعية والدفاع . لأن هذه المناقشات هى صورة لأعماق المجتمع الإسرائيلى الجديد .

أعلن أحد الشبان : إن الحياة فى المستعمرات يجب أن تختلف عما هى عليه الآن . فالذين أقاموا المستعمرات هم أناس أصحاب خيال عريض وأحلام جامحة . هؤلاء المؤسسون لم يعد لهم وجود . إنهم يطبقون أفكاراً قديمة على جيل جديد .

وقال شاب آخر : إن هذه المستعمرات قد أوحت بها ضرورات العصر الماضى . فالذين أقاموها أناس فى حالة خوف . أناس هاربون . ولكن الآن لم يعد هذا الخوف مقبولاً . ثم إن الجيل الجديد لم يعد هارباً من شىء .

وقال شاب ثالث : الدين نفسه بهذه الصورة لم يعد له معنى . . فالدين يطالبنا بالبكاء على معبد سليمان ولكن لماذا نبكى عليه : فى استطاعة أى إنسان أن يبنى المعبد . وأن يبنى أكبر وأفخم منه . . ثم حائط المبكى ؟ على أى شىء نبكى هنا وفى كل مكان . إن اليهود قد استردوا واستولوا على أرض أكثر مما كانوا يحلمون . . فما الذى يبكيهم . .

وقال رابع : إن الإنســان فى العصر الحــديث . . فى أوروبا وفى أمريكا يشكو من العزلة . . إنه وحــده . . بعيداً عن الأب والأم . بعيداً عن سـير الحياة الحــديثة . . وأنه وحده منعزل لأن أحداً لا يفهمه ولا يقدره . . وليس عند أى إنسان اسـتعداد لأن يفعـل ذلك . وفى هذه المسـتعمرات أنواع وأشكال من العـزلة . . فنحـن لا نتفــاهم . . لا كلام ولا سلام . ثم إننا منعزلون عن المجتمع الإسـرائيلى كله . ومنعزلون فى داخل هذه العـزلة . . ولذلك يغلب علينا الحزن والأسى . . لماذا ؟ لأنه لا توجد صـداقة . . ولا محبة . . لا يوجـد شعور خاص عند أى واحد منا . . لا نملك حتى مشاعرنا .. ومفروض أن هذه المستعمرات تهيىء الإنسان لحياة جـديدة . . حياة بعيدة عن هذه المسـتعمرة . . ولكنهـا لا تسـاعده ، وإنما تساعده على الهرب من الحياة والسخط على الاحياء بلا سبب معقول !

وقال شـاب : إن هذه المسـتعمرات قائمة على فكرة فى غاية الغــرور والرعونة . هذه الفكرة هى : إنه فى الإمكان تغيير الإنســان . . وأن ذلك يمكن أن يتم بسرعة . . ولذلك نشعر جميعاً بصدمة هائلة ، لأن شـيئاً من ذلك غير ممكن بأية صـورة . . فنحـن لا عشـنا حياتنا ولا عشنا حياة آبائنا وأجدادنا . . ولا نحن راضون عن هذا أو ذاك .

وقال أحد الكبار فى السن : إن الغرض من إنشاء المستعمرات هو : أن يكون اليهودى زارعاً للأرض . . وأن يكون جندياً . . وأن تزول الفوارق بينه وبين اليهود الآخرين . وهو الآن يزرع الأرض ويدافع عنها ، ولكن ليس له أى نصيب فيما يزرع . . وليس من العدل أن يدافع عن أناس يعيشون فى المدن . وهو طريد الصحراء .

إنها صورة متعددة الألوان ودرجات الحرارة لحياة الشـاب أو اليهـودى الجديد فى إسرائيل . .

وجع فى قلب إسرائيل
ولم نضع حرف الياء على صدورهم

كاتب أجنبى صديق قال لى تعليقاً على هذه السلسلة : إذن أنت عدو للسامية ! ولم يتنبه إلى أن هذا الحكم لم يفزعنى . وليس صحيحاً . ولكن لابد من توضيح لأشياء كثيرة . ومن أجل ذلك سوف أعترض هذه السلسلة بتسجيل المناقشة التى دارت بيننا . .

فالعداء لليهود قديم كاليهود أنفسهم . ولنا أن نتساءل : لماذا يكره الناس هؤلاء اليهود ؟ ! أو ما الذى يفعله اليهود حتى يكرهم الناس ؟

إن قصة الفتاة اليهودية « هداسة » التى جاءت فى سفر « استير » فى التوارة أول تفسير لذلك . .

فى هذا السفر نقرأ عن ملك فارسى اسمه اتشويرش كان مخموراً فطلب من الخدم أن يأتوا بزوجته عارية ليتفرج الضيوف على جمالها . اعترضت الزوجة . فطلقها الملك . . وعندما أفاق من الخمر ندم على ذلك ولكن ندمه لم يطل . فهو يريد أن يتزوج فتاة أجمل منها . وتقدمت الفتيات العذارى الجميلات . . ولكن رجلاً يهودياً اسمه مردخاى قرر أن يقدم ابنة أخيه واسمها هداسة . . كانت جميلة . . وجعل اسمها : استير أى النجمة . وجملها وقدمها وتفوقت على جميع الفتيات وأصبحت ملكة . وأوصاها ألا تقول إنها يهودية وأنها

من سلالة اليهود الذين أسرهم الملك البابلى نبوخذ نصر . واخفت ذلك . . وتسلل اليهود وراءها إلى قصر الملك . . وعلم مردخاى بمؤامرة على الملك . فأخبره بها . وقضى الملك على المؤامرة وتسلل اليهود أكثر إلى حاشية الملك . واتسع نفوذهم ونشطت تجارتهم وزادت ثرواتهم . . وضاق بهم الناس . فتآمروا على اليهود ، وأصدر الملك قراره بالقضاء عليهم . . ولكن . . سرعان ما أنقذت استير هؤلاء اليهود جميعاً . وذكرت الملك بأن مردخاى هو الذى أنقذ حياته . . وأعاد الملك إلى اليهود حياتهم . . وطلب إليهم أن ينتقموا من الذين تآمروا عليهم . . وطاحت سيوف اليهود وقتلوا المئات فى كل مكان . . وانتصرت استير من أجل شعبها . . وأصبح هذا اليوم عيداً سنوياً !

منذ هذه الأيام واليهود يعرفون أنهم شعب مكروه . وهم مكروهون لأنهم منعزلون عن الناس . ثم إن لهم تقاليد وعادات تجعلهم مختلفين مخالفين لكل الناس . . وقصة أستير تؤكد هذا الخلاف وتؤكد أن التآمر شرط لبقائهم . . وليست هذه هى القصة الوحيدة فى تاريخ اليهود . . فهناك ألوف فى كل مكان يتآمرون على الناس ، أو يستدرجون الناس لكى يتآمر بعضهم على بعض حتى ينشغلوا عن اليهود .

و « العداء للسامية » قديم . . ولكن هذا التعبير جديد . فقد ظهر لأول مرة فى مؤلفات الكاتب الفرنسى أرنست رينان فى سنة ١٨٧٠ . . وقد حاول كثيرون من المفكرين أن يجدوا تفسيراً نفسياً واقتصادياً لهذا العداء .

. . وكان آخر الذين حاولوا ذلك الفليسوف الوجودى سارتر فى كتابه :

« تأملات فى المسألة اليهودية » . . وكل النظريات تقول : إن الشعوب كلها فى تبريرها لأخطائها ، فإنها تلقيها عادة على رؤوس اليهود . فإذا حدثت مصيبة قالوا : اليهود . . وإذا وقعت أزمة اقتصادية قالوا : اليهود : وإذا انتشر وباء فهم اليهود . وتفسير ذلك ، فى رأيهم ، أن الشعوب تبحث باستمرار عن « كبش فداء » . . أو عن « شماعة » . . أو عن « صندوق زبالة » يرمون فيه بقذاراتهم ــ ولا يجدون غير اليهود . . والسؤال لا يزال قائماً : ولكن لماذا ؟

لأن اليهود منعزلون . متماسكون فى مواجهة الناس وليسوا معهم . . فهم الذين صلبوا المسيح . والديانة المسيحية تؤكد ذلك عشرين قرناً . . وهم يدعون أن دينهم

يمنعهم من الخدمة العسكرية . ومعنى ذلك أن الشعوب يجب أن تموت من أجلهم . وهم يكسبون فى الحرب والسلم . . ثم إن اليهود كانوا يشتغلون بالسحر الأسود . . أى أنهم فى حلف مع الشيطان ضد الإنسان . وقد رأت الشعوب فى كل العصور أن هذا الارتباط بالشيطان هو الذى جعلهم يتفوقون فى الطب والفلك . وكثيراً ما احتمى اليهود فى الطبقة الحاكمة يعطونهم المال ويغرقونهم فى الجنس . وقد أدى ذلك إلى كراهية الشعوب لهم . .

كما أن اليهود - ككل الأقليات فى كل بلد - يسارعون إلى العمل فى الجمعيات التخريبية أو فى الحزب الشيوعى . فهم يتآمرون بنظام ، على الأغلبية من الشعب . . وفى عصر القوميات فى أوروبا فى القرن التاسع كانت اليهودية أو « الصهيونية » قومية جديدة . . وفى نفس الوقت كان اليهود ضد القوميات ، إنهم « عالميون » حريصون على تحطيم كل القوميات وإذابة كل الحدود والطبقات والألوان والأديان ، هذه المواقف المتناقضة حيرت الناس وجعلتهم لا يصدقون اليهود ويرونهم كذابين متآمرين على كل القوميات والشعوب . وإنهم يدخلون كل تشكيل دينى أو سياسى بقصد القضاء عليه من الداخل . . وفى سفر أستير نجد أنه يقول لليهود : إنكم مختلفون عن الـ ١٢٧ شعباً الموجودين فى ذلك الوقت . أى أنهم مختلفون ومتفوقون ويجب أن يبقوا كذلك وأن يحرصوا على هذه الهوة بينهم وبين الشعوب الأخرى . والتوراة تؤكد لهم ضرورة أنهم الشعب الذى اختاره الله لعبادته . . هم وحدهم . . وأنهم أحق الناس بحمل رسالة الله . وأن الله ليس لكل الشعوب ، وإنما لليهود فقط ! ولذلك فهم بشر يعبدون الله ، وبقية الشعوب حيوانات لا يحق لها أن تعبد ولا أن يكون لها رب . . وإذا كان فليس هو الرب الذى اختار إسرائيل واختارته إسرائيل !

* * *

وتاريخ اضطهاد أوروبا المسيحية لليهود طويل وملىء بالدخان والدماء . . وفى فرنسا كانت البدايات الأولى لنبذ اليهود وإغراقهم وإحراقهم . . وفى ألمانيا نادى الشعب الألمانى فى القرن التاسع عشر بأنهم خونة لكل الشعوب . وظهرت فى ألمانيا سنة ١٨١٩ جمعية « هب هب » ، كانت تهاجم اليهود الذين هم « ملوك العصر » والذين يملكون كل ثروات الشعوب ويمتصون دماء الأبرياء . . والذى راجع السنتين ١٨٨٠ و١٨٨١ فى ألمانيا يجد ألوف الصفحات المروعة عن الذى فعله الألمان باليهود . . وكيف ارتفعت نداءات

وطنية متطرفة تقول : لقد انتصر اليهود على الجرمان . . وكيف أن ألمانيا طردتهم من المدارس والجامعات ومنعتهم من التجارة . . وكيف تقدم الألمان إلى المستشار بسمارك يطلبون طردهم من ألمانيا ..

بل إن هذه الكراهية الشديدة لليهود ولهذا الجنس السامى ـ أحفاد سام بن نوح ـ قد دفع الفلاسفة الألمان إلى إلغاء الديانة المسيحية . لأنها ديانة سامية . . والإبقاء على كل ما هو آرى . لأن السامية إنحلال ودعوة إلى التخريب . .

وما حدث فى روسيا وأوروبا الشرقية شىء مروع ولا يمكن حصره . ولكنه عداء لليهود وكل ما هو سامى . . وفى سنة ١٨٨١ كانت رائحة الدخان تبدأ من البحر الأسود حتى بحر البلطيق ـ لقد كانوا يحرقون بيوت اليهود وكتبهم واليهود !

إنهم يكرهون اليهود . إنهم حاولوا أن يتعايشوا معهم . ولكنهم يرفضون ويتعالون . ويغفلون على أنفسهم الأبواب يحصون ثرواتهم ويستعدون للهرب ـ حدث ذلك من مائة سنة ومن مئات السنين فى كل العالم !

وبلغت الكراهية للساميين قمتها عندما ظهرت الخطة السرية الخطرة للسيطرة على العالم . فقد كشف مراسل صحيفة التيمس فى أسطنبول سنة ١٩٢٩ أن اليهود قد ألفوا كتاباً اسمه « **بروتوكولات حكماء صهيون** » عندما انعقد مؤتمرهم الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا . . وأنهم فى هذا المؤتمر قد اتفقوا على خطتهم الشيطانية للسيطرة على العالم . . وترجم هذا الكتاب فى كل بلاد العالم . . **وفى مصر ترجم أربع مرات . . وكنت أول من أشار إليه وترجم فقرات منه منذ خمسة وعشرين عاماً !**

ومع النازية الألمانية بلغ العداء للسامية أعلى مراتبه . . وأصبحت قضية اليهود هى القضية الأولى فى الفلسفة النازية . وهذا واضح فى كتاب « كفاحى » لهتلر وكتاب « أسطورة القرن العشرين » للفيلسوف وزنبرج . . ومن قبله ظهرت فلسفة العداء للجنس السامى عند الفيلسوف الألمانى الجنسية الإنجليزى الأصل « تشمبرلين » والذى تزوج ابنة الموسيقار فاجنر . . وكذلك فى مؤلفات الفيلسوف نيتشه . .

والألمان المعاصرون معذورون إذا ارتعدوا لمجرد ذكر هذا التاريخ الرهيب لليهود فى بلادهم . . فقد طردوا وأحرقوا وخنقوا . . وأقيمت لهم معسكرات الاعتقال فى داخلوا

ويلزن ويوخنفالد واوشفتس وتزبلنكا وغيرها .. وحرموا من الدراسة والتدريس ومن التجارة .. وأرغموا على أن يجعلوا لهم أسماء عبرية .. وأن يضعوا حرف « ياء » - أى يهودى - على ملابسهم .. وأن تضع الدولة هذا الحرف على جوازات سفرهم ..

ولا شيء من ذلك ، ولا واحد على ألف قد حدث فى الشرق العربى كله ..

ثم إننا لسنا « معادين للسامية » لأننا ساميون . ومن الناحية الدينية فكل الأديان السماوية وغير السماوية سامية .. واللغة العربية سامية أيضاً . فنحن لسنا أعداء للسامية ، أى أعداء لأنفسنا .. وإنما هذه صفة أو تهمة يوجهها اليهود إلى الأوروبيين ، وليست إلى الآسيويين أو الأفريقيين ..

* * *

ولا يوجد عداء للسامية كالموجود الآن فى إسرائيل . فهم فى إسرائيل يحتقرون اليهود الملونين ، أى الساميين والحاميين أيضاً . واليهود الآريون هم الذين يحكمون إسرائيل .. وهناك نوعان من اليهود ، يهود سفردم - أى أسبان أو شرقيون عموماً .. ويهود سكنازيم - أى ألمان - أو غربيون عموماً . وبين هذين النوعين أو الطرازين صراع وقتال وحرب عنصريه دموية .. بين الساميين و لاريين .. فأكثر الناس عداء للسامية هم اليهود البيض فى إسرائيل !

وليس عندنا فى الشرق أو فى مصر ما يدل على العداء للسامية ولا عندنا « عقدة الذنب » العميقة عند الأوروبيين ضد إحراق وإغراق وطرد واضطهاد اليهود .. وإنما الذى عندنا هو التكفير عن هذه الذنوب الأوروبية .. فبسبب إرهاب اليهود فى أوروبا جاء اليهود إلى الشرق .. وبسبب العداء للسامية ظهرت الصهيونية .. أى القومية اليهودية .. أو جمع اليهود من كل مكان إلى مكان واحد هذا المكان هو القلب الدامى للعالم العربى .. فنحن - هنا - نكفر عن جريمة لم نرتكبها ، وعن اضطهاد لم نعم به . ذبحوهم وقتلوهم بالملايين هناك ، نموت ويتشرد منا الألوف والملايين فى كل أرض .. ولتقع حروب توسعية على الدول العربية .. ومع ذلك فحربنا مع إسرائيل حرب ضد كيان سياسى عنصرى مجنون ، ضد نظام إرهابى .. وليس ضد الساميين الذين هم كل العرب ومعظم اليهود !

فهـرس الكتاب

رقم الإيداع ٣٣١٩ / ١٩٧٦
الترقيم الدولى ٠ - ٠٨ - ٧٠٤٩ - ٩٧٧ ISBN

مطـــابع
المكتب المصري الحديث